صور من الإعجاز البياني وإحكام المعاني

تفسير سورة الواقعة

الدكتور الشيخ محمد بن محمد أبو شهبة

أستاذ بقسم الدراسات العليا الشرعية

جامعة أم القرى - مكة المكرمة

١

عالم المعرفة - جدة

تفسير سورة الواقعة

صور من الإعجاز البياني وإحكام المعاني

الطبعة الأولى
١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م

عالم المعرفة - جدة
للنشر والتوزيع

جدة - المملكة العربية السعودية - ص. ب. ٥٧٦. برقياً زادفكر
تلكس ٤٠١٢٠٩ شوركو اس جي تلفون: ٦٨٧٧٢٩٠ (٠٢) - ٦٨٧٧٤٢٢ (٠٢)

تفسير سورة الواقعة

صور من الإعجاز البياني وإحكام المعاني

منهج جديد جمع بين أصالة القديم
وجدّة الحديث

للأستاذ الدّكتور الشيخ
محمّد بن محمّد أبو شهبة

عالم المعرفة - جدة
للنشر والتوزيع

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذي أنزل على عبده الكتاب ولم يجعل له عوجا، قَيّما لينذر بأسا شديداً من لدنه، ويبشر المؤمنين الذين يعملون الصالحات ان لهم اجرا حسنا، ماكثين فيه أبدا.

والصلاة والسلام على نبينا محمد الذي وكل الله اليه تبيين القرآن فصار يفسره تارة بالقول، وتارة بالفعل، وتارة بهما معا، وتارة بسيرته وأخلاقه وصدق الله حيث قال: ﴿وأنزلنا اليك الذكر لتبين للناس ما نزل اليهم ولعلهم يتفكرون[١]﴾ وقال سبحانه: ﴿وما انزلنا عليك الكتاب الا لتبين لهم الذي اختلفوا فيه وهدى ورحمة لقوم يؤمنون[٢]﴾.

اما بعد..

فإن الله تبارك وتعالى أنزل القرآن الكريم لأمرين عظيمين وغرضين شريفين:

الأول: ليكون كتاب الهداية العظمى المشتملة على الحكم، والأحكام، والأخلاق والآداب والمواعظ والزواجر، والتبشير، والإنذار قال تعالى: ﴿قد جاءكم من الله نور، وكتاب مبين، يهدى به الله من اتبع رضوانه سبل السلام، ويخرجهم من الظلمات الى النور بإذنه ويهديهم الى صراط مستقيم﴾[٣] وقال تعالى: ﴿كتاب انزلناه اليك لتخرج الناس من الظلمات الى النور بإذن ربهم الى صراط العزيز الحميد[٤]﴾ وهداية القرآن اعظم الهدايات وأجدرها بتحقيق

---

(١) النحل /٤٤ (٢) النحل /٦٤ (٣) المائدة ١٥، ١٦ (٤) ابراهيم /٢.

السعادتين: الدنيوية، والأخروية قال تعالى: ﴿ان هذا القرآن يهدى للتي هي أقوم ويبشر المؤمنين الذين يعملون الصالحات أن لهم اجرا كبيرا﴾[١].

وقال تعالى: ﴿شهر رمضان الذي أنزل فيه القرآن هدى للناس وبينات من الهدى والفرقان﴾[٢] فهداية القرآن العظيم هي أبين الهدايات، وأوضحها، وأظهرها.

الثاني: ليكون كتاب المعجزة الكبرى والآية الباقية على وجه الدهر.

قال تعالى: ﴿قل لئن اجتمعت الانس والجن على ان يأتوا بهذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا﴾[٣].

وقال تعالى: ﴿ام يقولون افتراه قل فأتوا بعشر سور مثله مفتريات﴾ الآيتين[٤]

وقال تعالى: ﴿أم يقولون افتراه قل فأتوا بسورة مثله...﴾ الآيتين[٥].

وقال عز شأنه ﴿وإن كنتم في ريب مما نزلنا على عبدنا فأتوا بسورة من مثله وادعوا شهداءكم من دون الله ان كنتم صادقين، فإن لم تفعلوا - ولن تَفْعَلُوا - فاتقوا النار التي وقودها الناس والحجارة أعدت للكافرين﴾[٦].

القرآن هو كتاب العربية الأكبر:

والقرآن الكريم هو كتاب العربية الأكبر، ولولا القرآن الكريم،

---

(١) الاسراء /٩ (٢) البقرة /١٨٥ (٣) الاسراء /٨٨ (٤) هود /١٣، ١٤
(٥) يونس /٣٨، ٣٩ (٦) البقرة /٢٣، ٢٤.

العربي المبين، لماتت اللغة العربية كما ماتت اللغة اللاتينية وغيرها من اللغات القديمة، فهو الذي يجدد لها نشاطها اذا ضعفت، ويعيد اليها شبابها اذا اكتهلت، ويأخذ بيدها إذا شاخت وعجزت، وينتشلها من وهدتها كلما عدا عليها عادي الإهمال والاغفال حتى تصير في زوايا النسيان كما حدث في بعض أحقاب التاريخ.

وهذا أمر انفردت به اللغة العربية الشريفة: لغة القرآن الكريم والسنة النبوية عن غيرها من أخواتها اللغات السامية.

وفي العرب اليوم، بل وفي المسلمين اليوم - على ما بهم من عجمة - من يتكلم اللغة العربية كما تتكلم بها العرب الأوائل، ومنهم من يخطب كما كان يخطب قس بن ساعادة الإيادي، ومن هو يشعر بها كما كان يشعر امرؤ القيس[1] وأمية بن أبي الصلت[2] وكل ذلك بفضل لغة القرآن ولغة السنة النبوية، وما دام هذان الأصلان الشريفان موجودين، وباقيين فاللغة باقية ما بقيتا، وحية ما حييا ومزدهرة ما ازدهرا، وخالدة ما خلدا.

ان لغة القرآن ولغة السنة النبوية الشريفة هي التي فرضت سلطانها على المسلمين وعلى العلماء المسلمين، فإذا بهم بعد قرن او قرنين من الزمان ينطقون كما ينطق العرب الاصلاء، ويخطبون كما يخطب العرب العرباء، ويؤلفون كما يؤلف العلماء العرب وهذا آية من آيات الله على فضل اللغة العربية الشريفة.

ان القرآن والسنة هما اللذان صيرا من رعاة الإبل والشاء وأبعد الناس عن أساليب الحضارة، وأبعد الناس عن التوحيد أمة مؤمنة

(١) شاعر عربي جاهلي مشهور (٢) شاعر مخضرم وقد كان من المتحنفين وأصدق ما قيل فيه: «لقد آمن لسانه وكفر قلبه».

موحدة تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله، واليوم الآخر وتؤمن بالقدر خيره وشره، وتعمل بشريعة الله، وتتخلق بآداب الإسلام حتى أضحت خير أمة أخرجت للناس.

ان القرآن والسنة هما اللذان صيرا من العرب ومن غير العرب خلفاء عادلين رحماء، وأمراء حلماء، وعلماء حكماء، اربوا بعلمهم وحكمتهم على كل ذي علم وكل ذي حكمة، وقوادا عظاما ازروا بقواد والفرس، والرومان. إن الذين تكلموا في تاريخ الحضارات البشرية عجبوا كيف انتقل العرب من البداوة الى أرقى درجات الحضارة، ومن الجهل الى العلم، ومن الايمان بالخرافات والأساطير والأباطيل الى الإيمان بالله، والوصول الى الحق والحقيقة، ولم يمروا كما مر غيرهم بأطوار الحضارة من خضرمة وطفولة وشباب وكهولة حتى وصلوا الى القمة.

وقد عَمُوا او تَعامَوْا عن سبب الأسباب في ذلك كله وهو القرآن الكريم ان هذا الذي صنعه القرآن في العرب بخاصة وفي الأمة الاسلامية بعامة هو نوع من أنواع اعجاز القرآن اللغوي، والأدبي، والخلقي، والاجتماعي والعلمي.

على هذه الأصول والمبادىء التي أومن بها كانت دراساتي في القرآن الكريم، وعليها ستكون دراستي لهذه السورة التي بلغت - كما بلغ غيرها من سور القرآن - الغاية في الصور البيانية، الإعجازية، وفي إحكام المعاني، وفي شرف الغاية والمقصد ومن الله استمد العون والتوفيق، وهو حسبي ونعم الوكيل، ولا حول ولا قوة إلا بالله.

كتبه خادم القرآن والسنة

د. محمد بن محمد ابو شهبة

تفسير سورة الواقعة

تسميتها: -

سميت هذه السورة بالواقعة لأنها ابتدأت بقوله تعالى ﴿اذا وقعت الواقعة﴾. والسور تسمى اما بفاتحتها أو بأبرز شيء فيها. وهذه السورة افتتحت بذكر الواقعة.

السورة مكية[1]: -

والسورة عند جمهور العلماء مكية. وسمات السور المكية بارزة فيها. من قصر الآيات، واتفاق أواخر الفواصل، وذكر أوصاف الجنة والنار.

واستثنى بعضهم منها قوله تعالى: ﴿فلا أقسم بمواقع النجوم، وانه لقسم لو تعلمون عظيم، انه لقرآن كريم. في كتاب مكنون لا يمسه الا المطهرون، تنزيل من رب العالمين، أفبهذا الحديث أنتم مدهنون وتجعلون رزقكم أنكم تكذبون﴾.

وقيل: الا قوله تعالى ﴿وتجعلون رزقكم أنكم تكذبون﴾.

وبعضهم اقتصر على الآية الأخيرة وهي قوله تعالى ﴿وتجعلون رزقكم أنكم تكذبون﴾ وذلك لما رواه الإمام مسلم في صحيحه بسنده عن ابن عباس رضي الله عنه قال: «مطر الناس على عهد رسول الله ﷺ. فقال رسول الله ﷺ: أصبح من الناس شاكر، ومنهم كافر. قالوا: هذه رحمة وضعها الله. وقال الآخرون: لقد صدق نوء كذا. فنزلت هذه الآيات

---

(١) المكي: ما نزل قبل الهجرة، والمدني ما نزل بعد الهجرة. وهذا التعريف أصح التعريفات للمكي، والمدني

(فلا أقسم بمواقع النجوم) حتى بلغ (وتجعلون رزقكم انكم تكذبون[١]).

وقد ذكر الإمام النووي أن الإمام أبا عمرو عبد الرحمن بن الصلاح ذكر أنه رأى في رواية أن الذي نزل هو قوله سبحانه وتعالى ﴿وتجعلون رزقكم أنكم تكذبون﴾.

مناسبة السورة لما قبلها: -

ذكر الله تبارك وتعالى في سورة الرحمن بعض مشاهد قيام القيامة في قوله تعالى: ﴿يرسل عليكما شواظ من نار ونحاس فلا تنتصران﴾ وما بعدها من الآيات. ثم خلص من ذلك الى ذكر النار التي أعدها الله للكافرين فقال سبحانه: ﴿هذه جهنم التي يكذب بها المجرمون، يطوفون بينها وبين حميم آن﴾ ثم خلص من ذلك الى ذكر الجنان التي اعدها الله لعباده المقربين في قوله تعالى ﴿ولمن خاف مقام ربه جنتان﴾ وبعد ان ذكر بعض أنعمه عليهم في الآخرة خلص الى ذكر الجنات التي أعدها الله لمن دون ذلك وهم أصحاب اليمين فقال تعالى ﴿ومن دونهما جنتان﴾ الآيات الى آخر السورة.

وقد تضمن ذلك أن الناس فريقان مؤمن وكافر وأن المؤمنين منهم المقربون ومنهم أصحاب اليمين.

فجاءت سورة الواقعة مفتتحة بذكر مشاهد من مشاهد القيامة ثم فصلت أحوال الناس. في قوله تعالى ﴿وكنتم أزواجا ثلاثة، فأصحاب الميمنة ما أصحاب الميمنة، وأصحاب المشئمة ما أصحاب المشئمة، والسابقون السابقون، أولئك المقربون. في جنات النعيم﴾.

ثم فصل ما أعده للاصناف الثلاثة. من النعيم المقيم، أو العذاب

---

(١) صحيح مسلم - كتاب الإيمان - باب بيان كفر من قال مطرنا بنوء كذا.

الأليم فكانت السورتان متواخيتين متطابقتين في ان في كل منهما وصف القيامة والجنة والنار. ومنازل الناس في كل منهما وبذلك ظهر ان بين السورتين غاية التناسب.

ما عرضت له سورة الواقعة اجمالا: -

بعد أن ذكر الله تعالى بعض مشاهد القيامة في مفتتح سورة الواقعة. ناسب ان يذكر احوال الناس في هذا اليوم وأنهم أزواج ثلاثة: السابقون السابقون، وأصحاب الميمنة ما أصحاب الميمنة. وأصحاب المشئمة ما أصحاب المشئمة. ثم خلص سبحانه الى انكارهم للبعث ورد الله عليهم بأن الأولين والآخرين لمجموعون الى ميقات يوم معلوم. وخوّفهم بما سيلقون في يوم القيامة من أصناف العذاب.

ثم أقام سبحانه الأدلة على أنه هو الخالق لكل من في هذا الوجود وأنه هو القادر على أن يعيدهم مرة اخرى فان من قدر على الايجاد من العدم قادر على أن يعيدهم من باب اولى.

ثم أقام الله سبحانه جملة من الأدلة على انه هو الخالق وواهب الحياة لكل كائن وضرب لذلك أربعة أمثلة كلها شاهدة على أنه هو الخالق والرزاق والمنعم بشتى النعم وذلك في قوله سبحانه وتعالى ﴿أفرأيتم ما تمنون...﴾ الخ ﴿أفرأيتم ما تحرثون...﴾ الخ الآية.

﴿أفرأيتم الماء الذي تشربون...﴾ ﴿أفرأيتم النار التي تورون...﴾ ثم ذكر القسم العظيم بمواقع النجوم على ان القرآن الكريم تنزيل من رب العالمين فكيف بعد كل هذه النعم التي أجلها نعمة القرآن ينافقون ويكذبون ويضعون الكفران موضع الشكران والتكذيب موضع التصديق.

ثم ذكر الله تحديا للبشر كافة وهو أنكم إن كنتم تعتقدون أنكم غير

مدينين وانه لا بعث ولا جنة ولا نار فهاهم امواتكم تقبض أرواحهم وأنتم تشاهدون فهلا قدرتم على أن ترجعوهم الى الحياة ان كنتم صادقين أن لا حياة ثانية ولا بعث ولا حساب ولا جنة ولا نار.

ولا يزال القرآن يتحدى البشر كافة بهذا التحدي الصارخ الذي ستقف البشرية كلها مهما نقبت في الأرض ومهما صعدت الى السماء وسخرت الأجواء عاجزة والا فمن يستطيع ان يبطل هذا التحدي فليفعل، وما هم بفاعلين أبداً ان شاء الله.

ثم ختم الله السورة بمثل ما ابتدأها به من ذكر بعض ما أعده الله تبارك وتعالى للمقربين، وذكر بعض ما أعده لأصحاب اليمين، وذكر بعض ما أعده للمكذبين الضالين. وبذلك ختم الله السورة بمثل ما ابتدأها فكان عودا الى بدء وردا للعجز الى الصدر وكان براعة الختام ﴿ان هذا لهو حق اليقين فسبح باسم ربك العظيم﴾ ولا يسع المؤمن المعتبر المتعظ إلا أن يقول ويقول «سبحان ربي العظيم».

فضلها: وقد ورد في فضلها ما رواه ابو عُبَيْدٍ في فضائل القرآن وأبو يعلى وابن مَرْدَوَيْه في تفسيره والبيهقي في كتاب شعب الإيمان. عن ابن مسعود قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من قرأ سورة الواقعة كل ليلة لم تصبه فاقة أبداً». ومما يستحسن ذكره هنا ما رواه ابن عساكر في ترجمة عبد الله بن مسعود بسنده عن ابي ظَبْيَة قال مرض عبد الله مرضه الذي توفي فيه فعاده عثمان ابن عفان رضي الله عنه فقال له: ما تشتكي؟ قال ذنوبي قال: فما تشتهي؟ قال رحمة ربي قال: ألا آمر لك بطبيب قال: الطبيب امرضني قال: الا آمر لك بعطاء؟ قال لا حاجة لي فيه قال: يكون لبناتك من بعدك قال: اتخشى على بناتي الفقر؟ اني امرت بناتي يقرأن كل ليلة سورة الواقعة واني سمعت

رسول الله ﷺ يقول: «من قرأ سورة الواقعة كل ليلة لم تصبه فاقة أبداً ».

وروى ابن مَرْدَوَيْه بسنده عن أنس عن رسول الله ﷺ قال: (سورة الواقعة سورة الغنى، فاقرءوها وعلموها أولادكم).

وروى الإمام أحمد في مسنده عن جابر بن سمرة قال: (كان رسول الله ﷺ يصلي الصلوات الخمس من صلاتكم التي تصلون اليوم لكنه كان يخفف كانت صلاته اخف من صلاتكم وكان يقرأ في الفجر الواقعة ونحوها من السور).

وكون بعض السور والآيات لها فضائل وخصائص دينية ودنيوية مما تواترت به الأحاديث الصحيحة[١] والآثار وهي من الأمور الغيبيات التي لا مجال للعقل فيها وينبغي قبولها والعمل بها باعتقاد ما دامت ثبتت عن المعصوم ﷺ.

---

(١) المراد بالتواتر المعنوي لا اللفظي فقد رويت في ذلك احاديث تفيد هذا التواتر المعنوي.

تفسير البسملة

بسم الله الرحمن الرحيم

هذه الآية تسمى البسملة، وهي كلمة منحوتة منها. مولدة، قال الشاعر عمر بن ابي ربيعة:

لقد بسملت ليلى غداة لقيتها فيا حبذا هذا الحديث المُبَسْمَلُ

ولقد كان العرب في جاهليتهم يبدأون في كلامهم، وفي خطبهم، وفي ذبحهم، وفي كل شيء بأسماء آلهتهم، فجاء القرآن فنسخ كل ذلك وأبطله. فالبدء في الاسلام في كل شيء: في القراءة، والكتابة، والخطابة، وفي الذبح وفي الأكل وفي الشرب هو باسم الله الرحمن الرحيم.

والجار والمجرور «باسم الله» متعلق بمحذوف تقديره أقرأ، أو ابتدىء، وكل مبتدىء لشيء فهو ناو بالتسمية ما جعل التسمية مبتدأ له ففي الأكل: بسم الله آكل، وفي الذبح: بسم الله أذبح.

وقد أجمع المفسرون على تقديره مؤخرا، وذلك لإفادة الاختصاص فكان المسلم يقول: لا أبتدىء او لا أقرأ الا مبتدئا باسمك الكريم الجليل يا الله، ولست كعباد الأصنام والأوثان الذين يبدأون بأسماء آلهتهم ولا كاليهود والنصارى الذين يبدأون باسماء أحبارهم ورهبانهم، ورؤسائهم، وعظمائهم.

ومن البدع المستحدثة المستهجنة اليوم ما يقوله بعض الملوك، والرؤساء حينما يقولون: بأسم الشعب مثلاً، ومن المؤسف حقاً ان بعضهم يرددون هذا في أثناء الخطب تقليدا لهؤلاء الذين لا يقلون عن

كفار أهل الجاهلية في صنيعهم هذا.

والاسم: هو كل ما يدل على المسمى ذاتا أو معنى وقد يطلق في القرآن الكريم ويراد به ما يدل على مسماه، ومنه قول الله تعالى: ﴿ولله الأسماء الحسنى فادعوه بها، وذروا الذين يلحدون في أسمائه سيجزون ما كانوا يعملون﴾[1]. [والالحاد في أسماء الله بأن يراد به غير معانيها، او ان تطلق على غير الله تعالى].

وقد يطلق ويراد به الذات ومنه قوله تعالى: ﴿تبارك اسم ربك ذو الجلال والاكرام﴾[2] وذلك على قراء ابن عامر على ان «ذو صفة لاسم».

وكما ان ذات الله تبارك وتعالى يجب ان تقدس وتنزه لا يليق به سبحانه كذلك اسماؤه يجب ان تنزه وتقدس عما لا يليق به تعالى ومنه قول الله تعالى ﴿وسبح اسم ربك الأعلى﴾[3].

و «لله تعالى تسعة وتسعون إسما مائة إلا واحدا» كمافي الصحيحين[4] وغيرهما من كتب الأحاديث وقد سردها الترمذي في «جامعه» وغيره في كتبهم.

وأسماء الله توقيفية على الصحيح، لا تعلم إلا من طريق الشارع الحكيم قرآناً كان ام سنة، ولا دخل للقياس ولا للعقل فيها.

و «الله» اصله، الإله، فحذفت الهمزة على غير قياس، وقيل: للتخفيف ثم ادغمت اللام في اللام فصار: الله، والإله يطلق على كل معبود بحق أو بباطل، ثم غلب في الاستعمال على المعبود بالحق، فهو علم

---

(١) الاعراف/ ١٨٠ (٢) الرحمن/ ٧٨ (٣) سورة الأعلى /١

(٤) صحيح البخاري - كتاب الدعوات - باب لله مائة اسم غير واحد، وصحيح مسلم - كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار - باب في اسماء الله تعالى وفضل من أحصاها.

بالغلبة كالنجم للثريا، والبيت للكعبة.

و «الله» هو أعرف المعارف، لأن الأدلة المتكاثرة: العقلية، والكونية، والأنفسية والتنزيلية كلها دالة على وجوب وجوده لذاته، وصدق القائل:

فيا عجبا كيف يعصى الإلـ ... له أم كيف يجحده الجاحد

وفي كل شيء له آية ... تدل على أنه الواحد

والله علم على واجب الوجود سبحانه، ولا يطلق إلا عليه سبحانه، ويقال: إنه اسم الله الأعظم لأنه ينطوي تحته كل صفات الكمال، والجلال، والجمال ولأنه يوصف بها، ولا توصف هي به قال عز شأنه:

﴿هو الله الذي لا إلّه إلا هو عالم الغيب والشهادة. هو الرحمن الرحيم، هو الله الذي لا إلّه إلا هو، الملك، القدوس، السلام، المؤمن، المهيمن، العزيز، الجبار المتكبر، سبحان الله عما يشركون، هو الله الخالق الباريء، المصور، له الأسماء الحسنى، يسبح له ما في السماوات والأرض، وهو العزيز الحكيم[1]﴾.

وقد اختلف العلماء واللغويون في هذا الإسم الجليل، «الله».

أهو علم مرتجل، ام هو منقول؟ واذا كان منقولا فمم اشتق؟

فذهب الخليل بن أحمد الفراهيدي، وجماعة من العلماء، إلى انه علم مرتجل وضع من أول الأمر علما على الذات العلية.

والى هذا ذهب الأئمة: الشافعي، والخطابي، وإمام الحرمين، والغزّالي وذهب جماعة من العلماء الى انه منقول، وقد اختلف هؤلاء مم كان اشتقاقه؟ فذهب بعض العلماء الى أنه مأخوذ من قول العرب:

---

(١) سورة الحشر/ ٢٢، ٢٣، ٢٤.

اله - بكسر اللام في الماضي - يَألَه - بفتحها في المضارع - إلاهة أي عبد يعبد عباده ومنه قولهم: تأله اي تعبد فإلاَه بمعنى معبود. مثل كتاب بمعنى مكتوب.

وقال بعضهم: مأخوذ من أَلِه يأَلَه على وزن تَعِبَ يتعب الَها، اذا تحير وذلك لأن العقول تحار فيه.

وقال آخرون: انه مأخوذ من ألهت الى فلان أي سكنت، وذلك لأن القلوب المؤمنة، والعقول السليمة لا تسكن إلا إليه، والأرواح لا تفرح إلا بمعرفته، وصدق الله حيث قال: ﴿ألا بذكر الله تطمئن القلوب﴾.

ومن العلماء من يرى ان «الله» أصله «لاها» بالسريانية فعرب بحذف الألف الأخيرة، وأُدخِلت عليه الألف واللام فصار «الله» وعلى هذا يكون في الأصل غير عربي، ثم عرب وصار عربياً بالاستعمال، فنزل القرآن الكريم علـى ذلك.

ومهما يكن من شيء فإن هذا الإسم الجليل «الله» ليوحي الى النفس المؤمنة بالجلال والإعظام، والإكبار، والخشية والرهبة، والخوف منه سبحانه «الرحمن الرحيم» صفتان من صفات الله او ان شئت فقل: إسمان من اسمائه الحسنى تفيضان على الخلق كل أنواع النعم جليلها، وصغيرها، وظاهرها وخفيها وقد وسع الله الناس جميعا برحمته قال تعالى ﴿ورحمتي وسعت كل شيء﴾[١]. وقال حكاته لقول الملائكة المقربين ﴿ربنا وسعت كل شيء رحمة وعلما[٢]﴾. و«الرحمن» لا يطلق الا على الله تعالى، ولم يحفظ عن العرب اطلاقه على غير الله في جاهلية ولا

---

(١) الاعراف /١٥٦ (٢) سورة المؤمن /٧

إسلام، وقد تجاسر مسيلمة الكذاب فاطلق على نفسه: رحمان اليمامة وهذا من كفره وجحوده وكذبه وكذلك ما قاله بعضهم في مدحه:

سموت بالمجد يا ابن الأكرمين أبا   وأنت غيث الورى لا زلت رحمانا

فمن تعنتهم ومبالغتهم في الكفر، والإلحاد، والعناد.

واما «الرحيم» فيطلق على غير الله تعالى قال عز شأنه في وصف النبي ﷺ «بالمؤمنين رؤف رحيم[١]».

وقد اختلف العلماء في المراد «بالرحمن الرحيم» اهما بمعنى واحد أم لا؟

فذهب بعض المفسرين الى انهما بمعنى «كندمان» و«نديم» وعلى هذا يكون ذكر الثاني بعد الأول تأكيدا، وقيل: هما متغايران، وعلى هذا قيل: الرحمن: المنعم بجلائل النعم وعظائمها، والرحيم: المنعم بدقائق النعم وصغائرها وقيل: الرحمن المنعم بنعم عامة تعم المؤمنين، والكافرين والرحيم: المنعم بنعم خاصة على المؤمنين وتدل عليه قول الله ﴿وكان بالمؤمنين رحيما﴾[٢].

وجمهور المفسرين على ان الرحمن لما كان صفة خاصة بالله تعالى قدم على قوله «الرحيم» لأن الأول بمنزلة الاسم والثاني بمنزلة الصفة وللإمام شمس الدين محمد بن أبي بكر المعروف بابن قَيِّم الجوزية في هذا الموضع كلام فقال: إن الرحمن صفة ذات، والرحيم صفة فعل فمن ثم قدم ما هو صفة بالذات على ما هو صفة بالفعل.

وقال الامام الشيخ محمد عبده إن صيغة فعلان في اللغة العربية تدل على الصفات غير المستقرة كجوعان، وشبعان، وحيران. فكان لا بد من

---

(١) التوبة /١٢٨.   (٢) الأحزاب /٤٣

المجيء بالرحيم لأنه يدل على ان الرحمة صفة لازمة له سبحانه وتعالى.

ومهما يكن من شيء فهما صفتان ازليتان قديمتان قائمتان بذاته تعالى لا يستغني بإحداهما عن الأخرى وهما مصدر كل خير وانعام على الناس جميعا، ولا يكون القرآن معجزاً إلا بذكرهما.

وتجب البداءة «باسم الله الرحمن الرحيم» في كل امر ذي بال لقوله ﷺ «كل امر ذي بال لا يبدأ فيه بسم الله الرحمن الرحيم فهو أقطع» اي ناقص البركة رواه الخطيب في الجامع، وفي رواية «لا يبدأ فيه بحمد الله أقطع» أخرجه أبو عوانة في صحيحه وأصحاب السنن، وفي رواية «لا يفتتح بذكر الله فهو أبتر أو أقطع» رواه الإمام أحمد، ولذلك ابتدأ الله بها كل سورة من سوره ما عدا براءة، وبها كان يفتتح النبي ﷺ كتبه الى الملوك والأمراء، والله أعلم.

قوله تعالى ﴿إِذَا وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ(١) لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ(٢) خَافِضَةٌ رَّافِعَةٌ﴾(٣) الواقعة هي القيامة فهي مثل قوله تعالى ﴿فيومئذ وقعت الواقعة﴾[1] والواقعة علم بالغلبة على القيامة. أو علم منقول من الوصفية الى العلمية وسميت واقعة لأنها كائنة لا محالة. ومن أسماء القيامة. الحاقة، والطامة، والصاخه[2]، أما تسميتها بالحاقة لأنها حق لا مرية فيه. والطامة: لأنها تطمم كل شيء أتت عليه، والصاخه لأنها تصخ الآذان بما يصاحب وقوعها من أصوات مزعجة وهي مشتقة من الوقعة والأصل في الوقعة السقطة القوية ثم شاعت في وقوع الأمر العظيم المستفظع الذي ينزل ولذلك سميت بها الحرب ومعنى وقعت اي

---

(١) سورة الحاقه الآية (١٥). (٢) ففي الكتاب الكريم «الْحَاقَّةُ، مَا الْحَاقَّةُ» سورة الحاقة ١، ٢ وقال تعالى: ﴿فَإِذَا جَاءَتِ الطَّامَّةُ الْكُبْرَىٰ﴾ النازعات /٣٤، وقال تعالى: ﴿فاءذا جاءت الصاخة﴾ سورة عبس /٣٣.

حدثت وكانت والمعنى اذا حدثت القيامة. وقد اختار الله تعالى التعبير «بالواقعة» هنا وبوقعت للايذان بوقوعها لا محالة فهي واقعة بمادتها التي اشتقت منها. وواقعة ايضا باسنادها الى وقعت وبذلك استفادت تأكد وقوعها من جهتين من جهة مادتها التي اشتقت منها ومن جهة اسنادها لفعل الوقوع، وكذلك عبر بوقعت ولم يقل عز شأنه اذا تقع الواقعة على ما هو الظاهر من أن وقوعها في ما يستقبل من الزمان للإشارة إلى أن وقوعها أمر متحقق، وكائن لا محالة، ومثل ذلك في الكتاب المعجز المبين ﴿أتى أمر الله فلا تستعجلوه[1]﴾ مع أن أمر الله سيأتي بالنسبة للمخاطبين، وهذا الاسلوب في الخطاب يملأ النفس رهبة وذلك يجعل ما سيقع بمثابة ما وقع بالفعل وهو لون من ألوان المجاز والاستعارة.

(واذا) ظرف ضمن معنى الشرط وجوابها محذوف بمعنى اذا وقعت الواقعة كان كيت وكيت من الآيات العظام والحوادث الجسام والحشر والنشر والحساب والثواب والعقاب إما إلى جنة وإما إلى نار وفي حذف الجواب في مثله تهويل وتعظيم لأمر القيامة ولا كذلك في ذكر الجواب. ويجوز أن تكون (اذا) ظرفية مجردة عن الشرط بمعنى حين والعامل فيها وقعت ولا ينافي هذا كونها لما يستقبل من الزمان. وما بعدها فعل ماض، لأن وقوع القيامة بالفعل في المستقبل.

ومن أسرار الإعجاز في الكلمتين التناسب بين لفظ الكلمتين ومعناها فحرف القاف من الحروف الشديدة في النطق أو كما يقول علماء التجويد من حروف القلقلة والقيامة اذا قامت تكون شديدة الوقع على الناس جميعا مؤمنهم وكافرهم ثم ان الواقعة اذا وقعت تكون بغير علم محدد لوقعتها ثم تقع فجأة، والشيء إذا وقع على الانسان فجأة

(١) النحل/١

يكون أشد وقعاً على النفس. وأيضا فالوقوع في الأصل سقوط من أعلى إلى أسفل ومثل ذلك لا تنفع معه وقاية ولا يغنى منه حذر فانظروا - ليرعاكم الله - إلى بعض أسرار هذا الكتاب المعجز المبين ﴿لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ﴾ كاذبة اسم فاعل من كذب صفة لموصوف محذوف والتقدير ليس لوقعتها نفس كاذبة تكذب بها، وكيف والأمر الواقع بالشخص لا يكذب، ومن كذب ما وقع فكأنما انكر نفسه، واللام في «لوقعتها» للوقت. يعني ليس لحين وقعتها نفس كاذبة، وذلك كما تقول كتبته لخمس مضين، أو بقين من شهر كذا.

وقال بعض العلماء إن المراد بقوله تعالى «كاذبة» المصدر بمعنى الكذب وقد جاءت بعض المصادر على وزن فاعلة فمن ذلك العافية يعني ليس لوقوعها كذب مَّا، واذا انتفى الكذب انتفى المكذوب.

وأيا كان المراد فهذه الجملة مؤكدة لتحقق الأولى، وقد آثر الله تبارك وتعالى هنا التعبير بالوقعة على التعبير بلفظ الوقوع لما في التعبير بالوقعة من ايحاءات نفسية وإشارات لا توجد في لفظ الوقوع.

قوله تعالى ﴿خَافِضَةٌ رَافِعَةٌ﴾ اي هي خافضة رافعة وقد روى عن ابن عباس رضي الله عنه كما أخرجه جماعة انها تخفض اقواما وترفع آخرين - والمراد بالقوم المخفوضين هم الكفار والعصاة والأشقياء، وبالقوم المرفوعين المؤمنون والاتقياء - تخفض الأولين الى الدركات وعذاب الجحيم - وترفع الآخرين الى الدرجات العلا والنعيم المقيم وعلى هذا جاء تفسير سيدنا عمر حيث قال «خَفَضت اعداء الله الى النار ورفعت أولياء الله الى الجنة» والخفض والرفع على هذا حسي ومعنوي معا. والجملة على هذا تقرير لعظَم الواقعة، وتهويل لأمرها، وتفظيع لشأنها فان الوقائع العظام شأنها الخفض والرفع وذلك لما يشاهد في تبدُّل

الدول وظهور الفتن من ذل الأعزة، وعز الأذلة فما بالك بالواقعة وهي القيامة.

وقدم الخفض على الرفع لأن شأنها في الخفض اكثر من شأنها في الرفع لأن الكفرة والعصاه اكثر بكثير في هذه الدنيا من المؤمنين والتقاه.

ومن المفسرين من جعل الخفض بالنسبة للاجرام السماوية والرفع بالنسبة الى الاجرام الأرضية فهي تنثر الأولى وتخفضها - وتزيل الثانية من مقارها كالجبال وتفتتها وتنثرها في الأجواء وعلى هذا يكون المراد بيان ما يصحب وقوعها من الآيات العظام كما في قوله تعالى ﴿اذا السماء انشقت﴾[١] وقوله تعالى ﴿إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ وإِذَا النُّجُومُ انْكَدَرَتْ وإِذَا الجِبَالُ سُيِّرَتْ﴾[٢] وقوله تعالى ﴿إِذَا السَّمَاءُ انْفَطَرَتْ وإِذَا الْكَوَاكِبُ انْتَثَرَتْ وإِذَا البِحَارُ فُجِّرَتْ وإِذَا الْقُبُورُ بُعْثِرَتْ عَلِمَتْ نَفْسٌ ما قَدَّمَتْ وأَخَّرَتْ﴾[٣].

ولا مانع عندي من ان تكون الآية شاملة للخفض لبعض بني آدم ولبعض الاجرام، والرفع للبعض الآخر من بني آدم ولبعض الاجرام الأرضية، وهذا سر من أسرار اعجاز هذا القرآن الكريم فالكلمة الواحدة تحتمل معاني كثيرة من غير اختلاف ولا تناقض ولا تضاد مع الإحكام والإتقان، وقد كثر هذا في كلام الله تبارك وتعالى كثرة لا يحصيها العد.

وقول الله تبارك وتعالى ﴿إِذَا رُجَّتْ الأَرْضُ رَجّاً[٤] وبُسَّتَّ الجِبَالُ بَسّاً[٥] فَكَانَتْ هَبَاءً مُنْبَثّاً[٦]﴾ معنى رجت أي زلزلت وحركت تحريكا

---

(١) سورة الانشقاق ١/ (٢) سورة التكوير ١/ - ٣ (٣) سورة الانفطار ١/ - ٥.

بحيث يهدم ما فوقها من بناء مهما كان متقنا مؤسسا وجبال مهما كانت شامخة وثابتة وراسخة فهو مثل قوله تعالى ﴿اذا زلزلت الأرض زلزالها﴾[١] وقوله تعالى: ﴿ان زلزلة الساعة شيء عظيم﴾[٢].

جملة اذا رجت الأرض رجا بدل من قوله تعالى اذا وقعت الواقعة مبينة هي وما بعدها من الآيتين الى ما يصاحب وقوع القيامة من الآيات والتغييرات الكونية والأرضية ويجوز في «اذا» هذه ان تكون للزمان ولا ينافي هذا كونها للمستقبل ورجت فعل ماضي. لأنه يتحقق في المستقبل. على ان الظروف تتناوب. او تكون شرطية وجوابها محذوف اي كان ما كان مما لا يحيط به وصف ولا يُنَبىء عنه بيان وهذا هو المذهب الجزل والمنطق الفحل في اللغة العربية الشريفة - لغة القرآن الكريم والسنة النبوية -.

ومعنى (بست الجبال بسا) اي فتت تفتيتاً شديدا فكانت اي فصارت بسبب هذا التفتيت هباءاً منبثا. والفاء هنا للسببية لأن ما قبلها سبب لما بعدها والهباء: ما يرى في الشمس اذا دخلت من كوة فان الرائي يرى فيها من الذر ما لا يحصيه العد وقيل: هو ما يرى في الجو عن غبار اذا اثير التراب، وقيل هو الشعاع الذي يتطاير من النار اذا اضطرمت فانه لا يلبث ان يصير رمادا والمعاني ليست متعارضة ولا هي متخالفة وانما هي متقاربة فالمراد بكل منها ضرب المثل للهباء من غير نفي لغيره وأغلب التفاسير عن السلف من هذا القبيل فهي متغايرة ولكنها ليست متخالفة ولا متضادة - وعلى هذا لا يهولنك كثرة الأقوال المأثورة عن السلف في كتب التفاسير في مثل هذا لأن المقصود بها ما ذكرت لك فكن على ذكر[٣] من هذا دائماً -.

---

(١) سورة الزلزلة /١ (٢) سورة الحج /١.

(٣) الذكر بضم الذال يكون بالقلب والجنان وبكسر الذال يكون اللسان.

(ومعنى منبثا) اي متفرقا تفرقا شديدا وهذا هو الشأن في الهباء - فان قال قائل فما تقول في قوله تعالى في موضع آخر من الكتاب العزيز ﴿يوم ترجف الأرض والجبال وكانت الجبال كثيبا مهيلا[1]﴾ وقوله تعالى ﴿يوم تكون السماء كالمهل وتكون الجبال كالعهن[2]﴾ وهو الصوف المنفوش وقوله تعالى ﴿وتكون الجبال كالعهن المنفوش﴾[3].

قلت لا تنافي بين الآيات بل كل منها تكمل الأخرى فالجبال بعد الرج والبث تصير كالصوف المنفوش، ثم تصير كثبانا من الرمل المهيل، الذي لا تثبت عليه الاقدام، ثم تصير بعد ذلك هباء منبثا وبذلك تتوافق الآيات ويكمل بعضها بعضا وهكذا كل كتاب الله لا يناقض بعضه بعضا - ولا يخالف بعضه بعضا وصدق الله تبارك وتعالى حيث يقول ﴿ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيرا﴾[4].

قال تعالى: ﴿وكنتم أزواجا ثلاثة﴾(٧).

(وكنتم ازواجا ثلاثة) اي كنتم في تقديره وعلمه الأَزَلِيَّيْن. او كنتم بمعنى صرتم - وكان تجيء في اللغة العربية بمعنى صار.

والخطاب للأمة الحاضرة المخاطبة وهي الأمة الاسلامية، والخطاب كغيره من الخطاب في الكتاب الكريم الشامل لمن كانوا في عهد نزول القرآن ولمن يأتي بعدهم الى يوم القيامة والمحققون من المفسرين على ان الطوائف الثلاث - السابقين واصحاب اليمين واصحاب الشمال - من هذه الأمة المحمدية، التي هي خير الأمم، وأوسطها.

---

(١) المزمل /١٤ (٢) المعارج /٩.

(٣) القارعة /٥.

(٤) النساء /٨٢.

وذهب بعض المفسرين الى ان الخطاب للأمة الحاضرة والأمم السابقة على سبيل تغليب المخاطبين الحاضرين على الماضين ولكن يرد عليه ان الله تعالى قال في وصف السابقين ﴿ثُلَّةٌ من الأولين وقليل من الآخرين﴾ فلو قلنا إن الأولين الأمم الماضية والآخرين الأمة الاسلامية لكان السابقون من الأمم الماضية اكثر من السابقين من هذه الأمة مع ان الذي صدقه القصص القرآني والتاريخ الحق الصادق ان السابقين من هذه الأمة اكثر من غيرهم أي فانه ليس لرسول من رسل الله ما لسيدنا محمد ﷺ.

وأخرج مسدد من مسنده وابن المنذر والطبراني وابن مردويه بسند حسن عن ابي بكر رضي الله عنه عن النبي ﷺ في قوله تعالى ﴿ثلة من الأولين وقليل من الآخرين﴾ قال: هما جميعا من هذه الأمة.

والأزواج جمع زوج والزوج له اطلاقات:

١ - يطلق ويراد به كل واحد من القرينين من الذكر والانثى في الحيوانات المتزاوجة ومنه قوله تعالى ﴿ثمانية ازواج من الضأن اثنين، ومن المعز أثنين﴾ الى قوله تعالى «ومن الإبل اثنين ومن البقر اثنين» الآية فالزوج المراد به في الآية احد القرينين، والقرينان يعتبران زوجين، ولو كان الزوج يراد به الإثنان لكان الزوجان اربعة ولكان الجميع ستة عشر.

٢ - ويطلق ويراد به كل القرينين في الحيوانات وغيرها - فيقال للرجل والمرأة زوج، وللخف والنعل زوج.

٣ - ويطلق ويراد به ما يقترن بآخر مما ثلا له أو مضادا يعني الصنف والنوع وهو المراد هنا فالمعنى وكنتم «أصنافا ثلاثة ثم بين سبحانه وتعالى ما في الاصناف من اجمال وابهام.

فقال تعالى ﴿فأَصْحَابُ ٱلْمَيْمَنَةِ، ما أصحاب الميمنة(٨) وأصحاب المشأمة ما أصحاب المشأمة﴾(٩).

فالفاء في قوله تعالى «فأصحاب» للتمصيل بعد الاجمال.

وأصحاب الميمنة مبتدأ، والخبر قوله تعالى ﴿ما أصحاب الميمنة﴾، فما استفهاميه مبتدأ ثاني واصحاب خبره والجملة من المبتدأ الثاني والخبر خبر المبتدأ الأول والرابط الاسم الظاهر القائم مقام الضمير لأن الاصل فأصحاب الميمنة ما هم، اي شيء هم في حالهم وصنفهم و«ما» وان كثر استعمالها في الاستفهام عن الحقيقة فقد جاءت ايضا للاستفهام عن الصفة والحال ومنه قوله تعالى ﴿قالوا ادع لنا ربك يبين لنا ما هي﴾[1] يعني ما صفتها وحالها وكذلك قوله تعالى ﴿قالوا ادع لنا ربك يبين لنا ما هي﴾[2] فالسؤال في الآيتين عن الحال والصفة ولذلك جاء الجواب بيان الحال والصفة ففي الأول قال الله تعالى ﴿انه يقول إنها بقرة لا فارض ولا بكر عوان بين ذلك فافعلوا ما تؤمرون﴾ عوان اي وسط بين الفارض وهي المسنة والبكر وهي الصغيرة، وقال تعالى في جواب السؤال الثاني ﴿قال إنه يقول انها بقرة لا ذلول تثير الأرض ولا تسقي الحرث مسلمة لاشية فيها﴾ اي لا لون فيها يخالف لونها وهو اللون الأصفر.

وكذلك يقال في قوله تعالى ﴿وأصحاب المشأمة ما أصحاب المشأمة﴾؟ وقد جاء الخبر في الجملتين على هذه الصفة لكونه ادل على المقصود وهو التفخيم والتعظيم في الأول - والتهويل والتفظيع في الثاني.

---

(١) سورة البقرة /٦٨.

(٢) سورة البقرة /٧٠.

والمراد بهذا الاسلوب تعجيب السامع من شأن الفريقين في الفخامة والفظاعة كأنه سبحانه وتعالى قال فأصحاب الميمنة في غاية حسن الحال وحسن العاقبة والمآل، وأصحاب المشأمة في غاية سوء الحال وسوء العاقبة والمآل وهذا هو ما بينته الآيات فيما بعد غاية البيان.

وأصحاب الميمنة هم اصحاب اليمين واصحاب اليمن والبركة.

وأصحاب المشأمة: هم أصحاب الشمال مأخوذ من اليد الشؤمَى وهي الشمال او من الشؤم مقابل اليمن، وسمى الأولون أصحاب اليمين: إما لأنهم يأخذون كتبهم بإيمانهم - واما لأنهم يسلك بهم حين يذهب بهم الى الجنة ذات اليمين وإما لأنهم أصحاب اليمن والبركة - ولا مانع عندي من ان سموا اصحاب اليمين لهذه المعاني الثلاث مجتمعة يأخذون كتبهم بإيمانهم وهو ايضا يسلك بهم الى الجنة بعد ذلك ذات اليمين وهم مع هذا اهل يمن وخير. لأن هذه المعاني غير متخالفة.

وسمى الآخَرُونَ أصحاب الشمال اما لكونهم يأخذون كتبهم بشمالهم واما لأنهم حين يساقون سوقا يسلك بهم ذات الشمال وإما لأنهم أهل شؤم وشر.

ولا يخفى علينا ما يبلغ به هذا الاسلوب من التأثير في نفوس العرب فقد كانوا يتفاءلون بالطير اذا غدت نحو اليمين ويتشاءمون بها اذا ذهبت ناحية الشمال، ففيه الترغيب لهم في ان يكونوا من أهل اليمين، والتنفير لهم من أن يكونوا من أهل الشمال.

قال تعالى ﴿والسابقون السابقون(١٠) أولئك المقربون(١١) في جنات النعيم(١٢)﴾.

وانما لم يقدموا على أصحاب الميمنة وأصحاب المشئمة لكونهم أسبق الأصناف الثلاثة وأولاهم بالفضل، وأخروا بعد الصنفين؛ ليكون

ذكرهم متصلا ببيان التحدث عنهم وذكر محاسن احوالهم وما أعده الله لهم من المقام العظيم والنعيم المقيم.

والسابقون الأول: مبتدأ، والثاني: خبره، فكأنه تبارك وتعالى قال: والسابقون هم السابقون الى الإيمان والى التقوى والى كل خير ديني أو دنيوي من العبادات او المعاملات والأخلاقيات، وهذا الاسلوب معهود في كلام العرب فمن ذلك قول شاعرهم:

«أنا أبو النجم وشعري شعري» أي شعري المنسوب الى هو شعري المعروف بالفخامة والجزالة وسمو المعنى، ودقة الخيال، والتفنن في أساليب البيان، وهذا الاسلوب في أساليب البيان هو الأفخم والأجزل وفي الحديث النبوي الشريف «فمن كانت هجرته الى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله» رواه البخاري ومسلم.

وقد اختلف المفسرون قديما وحديثا في بيان من هم السابقون، فقيل: هم الذين سبقوا في حيازة الكمالات في العلوم اليقينية ومراتب التقوى بعد الايمان، وقيل: هم الانبياء عليهم الصلاة والسلام لأنهم تقدموا أهل الأديان، وقيل: هم السابقون الى الصلوات الخمس، أول من يغدون الى المساجد وآخر من يخرجون، وقيل: هم المسارعون الى الجهاد، وقيل: هم السابقون الى التوبة وأعمال البر، وقيل: هم أهل القرآن.

والحق ان هذه التفسيرات من قبيل التمثيل لا من قبيل بيان الحقيقة، فقد فسر كل بما رآه أولى بالسبق وأحق بالفضل.

والذي يظهر لي - والله أعلم - أنهم هم المسارعون الى الايمان، الصادقون في إيمانهم غاية الصدق والمتقون الله غاية التقوى، والسباقون إلى كل خير ديني ودنيوي فيشمل كل ما ذكر من ألوان التفسير التي

ذكرها السلف ويدخل في هؤلاء السابقين دخولا أولياء الأنبياء والمرسلون والصديقون والشهداء والصالحون.

وأما تفسير السابقين بالذين صلوا إلى القبلتين أو الذين هاجروا الهجرتين[1] فهو تفسير لنوع خاص في السابقين وهم السابقون الأولون من المهاجرين والأنصار ولا يصلح أن يكون تفسيرا عاما للسابقين، والا لو قصرناه على هؤلاء لما دخل فيه غيرهم ممن جاء بعدهم مع أن الله تبارك وتعالى يقول في السابقين: ﴿ثلة من الأولين، وقليل من الآخِرين﴾ وهؤلاء القليل من الآخرين لا يقال فيهم أنهم صلوا الى القبلتين أو هاجروا الهجرتين، فليتنبه الى هذا القارئون، ولا سيما أهل العلم وطلابه.

ثم قال تعالى ﴿أولئك المقربون﴾.

جملة من مبتدأ وخبر والجملة اما مؤكدة لما قبلها أو خبر لها بعد خبر، أو هي من قبيل الاستئناف البياني كأن سائلا سأل ومن هم السابقون؟ فقال عز شأنه ﴿أولئك هم المقربون﴾ من القربى والحظوة عند الله أي أولئك هم الموصوفون بذلك الوصف الجميل الذين أنيلوا حظوة ومكانة وزلفى عند الله تبارك وتعالى. وبعضهم جعله من القرب المكاني وفسره بأنهم الذين قربت الى عرش الله العظيم درجاتهم ومنازلهم.

وفي قول تعالى ﴿أولئك المقربون﴾ من ألوان البلاغة ما فيه ففي الإشارة اليهم بأولئك إشارة الى تميزهم حتى صاروا عنوانا على السبق وعلما على الفضل، وفي الإتيان بالكاف التي هي للبعد مع قرب العهد بالمشار اليه بيان بعد منزلتهم في الفضل وأنهم لا يدرك فضلهم ومنازلهم

(١) ذكر ذلك جمهرة المفسرين.

مدرك ولا يلحق بهم لاحق، وفي الإتيان بالألف واللام في «المقربون» الإشارة إلى أنهم البالغون الكمال في القرب من الله ومثل ذلك قول الله ﴿ذلك الكتاب﴾[1].

وانما لم يأت في الاخبار عنهم بما أتى به في الفريقين الآخرين كأن يقول: «والسابقون ما السابقون» لأن ما جاء به القرآن الكريم أبلغ، لأنه لو قال سبحانه هكذا لفات معنى المبالغة في الاخبار عنهم بالسابقون كأن سبقهم أمر مفروغ منه، وليسوا في حاجة الى تعجيب من شأنهم، وأيضا فليكون هناك تميز لهم في الاسلوب والتعبير كما هم متميزون عنهم في الحقيقة والواقع ونفس الأمر.

وهذا من الإشارات القرآنية المعبرة عن التمييز وبذلك يتوافق اللفظ والمعنى في إظهار حقيقة تميزهم عن الفريقين غاية التميز، فلله در التنزيل ما ابلغه وما أفصحه.

وقال تعالى: ﴿في جنات النعيم﴾.

خبر بعد خبر لقوله تعالى ﴿اولئك...﴾ فالمراد بالخبر الأول: بيان اللذة الروحية، وبالخبر الثاني: اللذة الجسمانية، أو متعلق بمحذوف حال من المقربين اي حالة كونهم كائنين في جنات النعيم أو متعلق بقوله «المقربون» لأنه اسم مفعول وهو من المشتقات التي يتعلق بها الظرف والجار والمجرور.

قال الله تبارك وتعالى ﴿ثلة من الأولين(١٣) وقليل من الآخرين(١٤)﴾.

الثلة: الجماعة الكثيرة، وقيل: الثلة: الجماعة قليلة كانت أم كثيرة، والظاهر هنا الأول وذلك بدليل المقابلة بقوله ﴿وقليل﴾ وهذا هو الذي

---

(١) البقرة /٣.

تقتضيه البلاغة في الكلام المعجز المبين. والمراد بالأولين: أصحاب رسول الله ﷺ ومن جاؤوا بعدهم من أهل القرون الثلاثة الفاضلة ففي صحيح البخاري عن النبي ﷺ قال «بعثت من خير قرون بني آدم قرنا فقرنا حتى بعثت من القرن الذي كنت فيه[١]».

وفي الصحيحين عن عبد الله بن مسعود عن النبي ﷺ قال «خير القرون قرني ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم[٢]، ثم يجيء قوم تسبق شهادة أحدهم يمينه، ويمينه شهادته[٣]».

والمراد بالآخرين: من جاءوا بعد أهل القرون الثلاثة الى يوم القيامة وعلى هذا تكون الفئتان من هذه الأمة المحمدية، وعلى هذا الكثيرون من المفسرين من السلف والخلف.

ومن يرى أن هذه الأصناف الثلاثة من الأمم كلها من لدن آدم عليه السلام الى نبينا محمد ﷺ يقول: «ثلة من الأولين» يعني من الأمم السابقة الى أمة سيدنا محمد ﷺ «وقليل من الآخرين» يعني من أمة سيدنا محمد ﷺ، وسموا قليلا بالنسبة الى مجموع سبقهم من الأمم السابقة لأن الأنبياء السابقين كثروا فكثر السابقون الى الإيمان فزادوا على عدد السابقين من الأمة الاسلامية.

لأن السابقين من أمة أي نبي من الأنبياء السابقين لن يبلغوا مبلغ السابقين من هذه الأمة بل، ولا عشرهم بل ولا عشر معشارهم وقد

---

(١) صحيح البخاري - كتاب المناقب - باب صفة النبي ﷺ.

(٢) أصح ما قيل في أهل قرنه ﷺ هم الصحابة، والذين يلونهم هم التابعون، والذين يلونهم هم أتباع التابعين: أما بالنسبة للصحابة فالخيرية ثابتة لكل منهم، وأما بالنسبة لمن بعدهم فخيريتهم باعتبار المجموع.

(٣) صحيح البخاري - كتاب المناقب - باب فضائل أصحاب النبي ﷺ، وصحيح مسلم - كتاب الفضائل - باب فضل الصحابة ثم الذين يلونهم...

روى هذا عن جماعة من السلف منهم الحسن البصري.

والقول الأول هو الوجه وهو الذي تؤيده الأدلة النقلية من الأحاديث الصحيحة منها ما ذكرته آنفا، وأيضاً فهو الذي تؤيده الأدلة التاريخية، فهذا هو موسى عليه الصلاة والسلام لم يكن له من الأصحاب والأصفياء الا عدد قليل، وكذلك عيسى عليه الصلاة والسلام لم يزد أصفياؤه وحواريوه عن اثني عشر حواريا لم يلبث واحد منهم ان خان عيسى عليه السلام ودل اليهود عليه.

واذا نظرنا في القصص القرآني الصادق الذي لا يتطرق اليه شك وارتياب نجد ان نوحا عليه الصلاة والسلام لم يؤمن به من قومه الا القليل وصدق الله تعالى: ﴿حتى اذا جاء أمرنا وفار التنور قلنا احمل فيها من كل زوجين اثنين وأهلك الا من سبق عليه القول ومن آمن وما آمن معه إلا قليل﴾[١].

وهذا هو موسى عليه الصلاة والسلام قال لقومه كما حكى الله سبحانه وتعالى ﴿يا قومِ ادخلوا الأرض المقدسة التي كتب الله لكم ولا ترتدوا على أدباركم فتنقلبوا خاسرين، قالوا يا موسى إن فيها قوما جبارين وإنا لن ندخلها حتى يخرجوا منها فان يخرجوا منها فانا داخلون، قال رجلان[٢] من الذين يخافون أنعم الله عليهما ادخلوا عليهم الباب فاذا دخلتموه فانكم غالبون، وعلى الله فتوكلوا ان كنتم مؤمنين، قالوا يا موسى انا لن ندخلها ابدا ما داموا فيها، فاذهب انت وربك فقاتلا انا ههنا قاعدون، قال رب اني لا املك الا نفسي وأخي فافرق بيننا وبين القوم الفاسقين، قال فانها محرمة عليهم أربعين سنة يتيهون في الارض، فلا تأس على القوم الفاسقين[٣]﴾.

(١) هود /٤٠، والتنور هو ما يخبَز فيه الخبز. (٢) هو يوشع بن نون، وكالب بن يوقنا
(٣) سورة المائدة /٢١ - ٢٦.

فاذا كانت الألوف التي كانت مع موسى عليه السلام لم يستجب اليه منهم الا اثنـــــان فماذا تنتظر أن يكون في بني اسرائيـــــل من السابقين؟!!!.

فأين هذا من قول المقداد بن عمرو المعروف بابن الاسود للنبي ﷺ وهو يقول للمسلمين قبيل موقعة بدر الكبرى: «اشيروا علي أيها الناس» قال المقداد: (يا رسول الله لا نقول لك كما قال بنوا اسرائيل لموسى): «اذهب انت وربك فقاتلا إنا ههنا قاعدون» ولكنا نقول (اذهب انت وربك فقاتلا انا بين يديك وعن يمينك وعن شمالك ومن خلفـك مقـاتلون) وقول سعـد بن معـاذ (سيـد من سادات الانصـار) للنبي ﷺ حينئذ: «انا لصُبُر في الحرب، صُدُق عند اللقاء، والله لو خضت بنا هذا البحر - يريد البحر الأحمر - لخضناه معك ما تخلف منا رجل واحد، ولئن التقينا بعدونا ليرينك الله ما تقر به عينك» فاستبشر وجه النبي وتهلل وبشرهم بالنصر.

وهؤلاء هم رسل رسول الله ﷺ الى ملوك الأرض، وأمرائهم استجابوا الى رسول الله ﷺ، ولم يتقاعسوا، ولم يخافوا، وهم يعلمون ان مهمتهم شاقة، شاقة، وقد يكون فيها القتل، والتنكيل، والتعذيب، وهكذا فليكن السابقون[(١)].

وهذا هو الخليل ابراهيم عليه الصلاة والسلام هاجر الى الله من بلاد كلدانيا الى بلاد الموصل فما آمن به أحد الا ابن اخيه لوط عليه السلام، وقد بذل جهده في نصح ابيه ودعوته الى الايمان بالله ونبذ طـاعة الشيطان ونبذ عبادة الأوثان حتى اضطر اضطرارا بعد ان يئس من أبيه وقومه الى تركهم، قال سبحانه: ﴿قال أراغب أنت عن

(١) صحيح البخاري - كتاب المغازي - باب غزوه بدر، كتاب السيرة النبوية في ضوء القرآن والسنة جـ٢ - ص١٠٤، ٢٩٧.

آلهتي يا ابراهيم لئن لم تنته لأرجمنك واهجرني مليا، قال سلام عليك سأستغفر لك ربي انه كان بي حَفِيًّا، وأعتزلكم وما تدعون من دون الله وأدعو ربي عسى الاَّ أكون بدعاء ربي شقيا، فلما اعتزلهم وما يعبدون من دون الله وهبنا له اسحاق ويعقوب وكلا جعلنا نبيا ووهبنا لهم من رحمتنا وجعلنا لهم لسان صدق عليا﴾[1]. ذلك أنه بعد أن هاجر الى بلاد الشام واستقر به المقام هناك وهبه الله الذرية الصالحين وكان منهم بعض الأنبياء والمرسلين وصدق الله حيث قال: ﴿فلما اعتزلهم وما يعبدون من دون....﴾ ثم قال: ﴿واذكر في الكتاب اسماعيل انه كان صادق الوعد وكان رسولا نبيا، وكان يأمر أهله بالصلاة والزكاة وكان عند ربه مرضيا﴾ سورة مريم /٥٤، ٥٥.

وهكذا يطول بنا الكلام لو تتبعنا من ذكروا من الأنبياء والمرسلين في كتاب الله العزيز ومن استجاب لهم من عباد الله المؤمنين، فما بالك بقلة من يكون منهم من السابقين والحمد لله الذي هداني لهذا وما كنت لأهتدي لولا ان هداني الله.

قول الله تعالى: ﴿عَلَى سُرُرٍ مَوْضُونَةٍ (١٥) مُتَّكِئِينَ عَلَيْهَا مُتَقَابِلِينَ(١٦)﴾.

الوَضْنُ: هو النسج المحكم الدقيق موضونة معناها منسوجه، والكلام من قبيل الاستعارة لأن الأصل في النسج أن يكون للصوف أو القطن أو للحرير ثم استعير هذا لصنع السرر على هذه الحالة العجيبة التي تبهر العيون وتنزع لها القلوب، ومن الوضن الوضين وهو الحزام الذي يشد على بطن البعير ليثبت الرحل على ظهره وذلك لأنه محكم النسج طبقة فوق طبقة قال شاعرهم يصف ناقته بالهزال لطول السير عليها والسفر بها: (اليك تعدو قلقا وضينها). وعلى هذا فالمعنى على سرر

(١) سورة مريم /٤٦ - ٥٠.

منسوجه بقضبان الذهب والفضة مشبكة بالجواهر من در، ولآلىء ويواقيت. ومن هذا المعنى قولهم درع موضونه اي مصنوعة بدقة وحسن نظام. قال الأعشى:

ومن نسج داود موضونـــــــه تساق مـع الحي عـــيرا فعـــيرا

اي درع محكمة الصنع.

« متكئين عليها متقابلين » اي جالسين عليها كما يشاءون وجوههم متقابلة لا متدايرة لأن من شأن الجلسة مع الأهل والأولاد والأحباب والأصدقاء ان تقع العيون على العيون، وتتقابل الوجوه بالوجوه. والكلمات الثلاث: على سرر، موضونة، متكئين عليها، متقابلين أحوال اما مترادفة أو متداخلة. أما على الأول فصاحب الحال هو قوله تعالى « المقربون » أو الضمير المستكن في متعلق الجار والجرور وهو قوله « في جنات النعيم » لأن تقدير الكلام: الكائنون في جنات النعيم حالة كونهم على سرر موضونة، وحالة كونهم متكئين عليها، وحالة كونهم متقابلين وعلى هذا فصاحب الحال واحد والعامل فيها واحد.

وأما على انها احوال متداخلة أي أن كل كلمة هي حال مما قبلها ويكون تقدير النظم الكريم هكذا: أولئك المقربون حالة كونهم كائنين على سرر موضونة حالة كونهم متكئين عليها، حالة كونهم متقابلين، فصاحب الحال في الأولى لفظ المقربون، وصاحب الحال في الثانية هو الضمير المقدر في كائنين أي هم، وصاحب الحال في الثالثة هو الضمير في متكئين اي هم، وأيضا فالعامل في كل هو ما قبله وعلى هذا يكون صاحب الحال متعددا في الظاهر وان كان واحدا في الجميع لأنه يعود على المقربين ويكون العامل في الأحوال متعددا. فهذا هو الفرق بين كونها احوالاً مترادفة أو أحوالاً متداخلة، والغاية في الإفادة واحدة وان كانت الوسيلة متغايرة، فهي على كلا الأمرين أوصاف لصاحبها

لأن الحال كما قال علماء النحو والعربية: وصف لصاحبه قيد في عامله.

وقد عرضت لمثل هذه الدقائق والاصطلاحات الفنية لأن هذا كثيرا ما يوجد في كتب تفسير القرآن الكريم وكتب شروح الأحاديث فأردت أن يكون هذا التفسير نافعا للطلاب المتخصصين في الأصلين الشريفين، القرآن الكريم والسنة النبوية ولغير المتخصصين وهم الجمهرة الكاثرة من المسلمين، فليأخذ كل من القرآن من هذا التفسير ما هو لائق به وملائم له.

قوله تعالى: ﴿يطوف عليهم ولدان مخلدون (١٧) باكواب وأباريق وكاس من معين (١٨) لا يصدعون عنها ولا ينزفون (١٩) وفاكهة مما يتخيرون (٢٠) ولحم طير مما يشتهون (٢١) وحور عين (٢٢) كأمثال اللؤلؤ المكنون (٢٣) جزاء بما كانوا يعملون (٢٤) لا يسمعون فيها لغوا ولا تأثيما (٢٥) الاّ قيلا سلاما سلاما (٢٦)﴾.

﴿يطوف عليهم ولدان مخلدون﴾.

شروع في بيان ما أعده الله تبارك وتعالى للسابقين من ألوان النعيم المقيم والجملة اما من قبيل الاستئناف النحوي أو حال من المقربين بعد احوال ولعل الأول هو الأولى والولدان جمع ولد، ومعنى مخلدون مبقون أبدا على صفة الولدان لا يهرمون ولا يتغيرون ليكون ذلك انعم للمخدومين.

وانما وصفوا بالخلود مع أن كل من في الجنة مخلدون لأنه ربما يتوهم متوهم من كونهم ولدانا انهم يهرمون ثم يموتون فازال الله هذا التوهم وهؤلاء الولدان هم خدم أهل الجنة وقد اختلف في أصل هؤلاء الولدان فقيل هم أولاد الكفار الذين ماتوا قبل البلوغ بلا حسنات لهم يثابون عليها ولا سيئات يعاقبون عليها وقيل هم اولاد المسلمين الذين ماتوا صغارا والراجح هو الأول لأن مما ينغص المسلم ان يكون ولده

خادما لا سيا لغيره، والجنة ليست دار تنغيص.

ولا ينافي الأول أن رسول الله ﷺ سئل عن أولاد المشركين فقال الله الذي خلقهم أعلم بما كانوا عاملين وفي رواية أبي هريرة سئل النبي ﷺ عن ذراري المشركين فقال (الله اعلم بما كانوا عاملين) رواهما البخاري[1] لأن ذلك أي قول الرسول كان قبل ان يعلم انهم في الجنة. وقد ورد في ذلك حديث أخرجه ابو داود الطيالسي وابو يعلي والطبراني والبزاز من حديث سمرة مرفوعا ولفظه (أولاد المشركين خدم أهل الجنة) لكن اسناده ضعيف وروى عبد الرزاق من طريق ابي معاذ عن الزهري عن عروة عن عائشة قالت سألت خديجة النبي ﷺ عن أولاد المشركين فقال: هم مع ابائهم، ثم سألته بعد ذلك فقال: الله اعلم بما كانوا عاملين ثم سألته بعدما استحكم الاسلام فنزل ﴿ولا تزر وازرة وزر اخرى﴾ قال هم على الفطرة أو قال هم في الجنة وأبو معاذ هو سليمان بن ارقم وهو ضعيف ولو صح أي من الحديثين لكان قاطعا للنزاع ولكنهما لم يصحا كما سمعت.

ويمكن أن يستأنس في ذلك بما روى البخاري في صحيحه بسنده عن سمرة بن جندب من حديث الرؤيا الطويل وفيه (قال انطلق فانطلقنا حتى انتهينا الى روضة خضراء فيها شجرة عظيمة وفي أصلها شيخ وصبيان وقد ورد تفسير ذلك من الملكين في هذا الحديث ولفظه والشيخ في أصل الشجرة ابراهيم عليه السلام والصبيان حوله أولاد الناس رواه البخاري[2].

قال الإمام النووي تعليقا على من قال أن أولاد المشركين في الجنة

---

(١) صحيح البخاري - كتاب الجنائز - باب ما قيل في أولاد المشركين.

(٢) صحيح البخاري - كتاب الجنائز - في باب بعد باب ما قيل في أولاد المشركين.

وهو المذهب الصحيح المختار الذي صار اليه المحققون لقوله تعالى ﴿وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا﴾ واذا كان لا يُعَذَّب العاقل لكونه لم تبلغه الدعوة فلأن لا يعذب غير العاقل من باب أولى والله اعلم.

الأكواب: جمع كوب وهو الإناء الذي لا عروة ولا خرطوم له، والأباريق: جمع إبريق وهو ما له عروة وخرطوم وسمي ابريقا للمعانة لأنه غالبا يصنع من البلور أو الفضة بل ومن الذهب (وكأس من معين) الكأس الإناء المملوء بالخمر أو بغيره من الشراب المحبوب، والمراد هنا الأول (من معين) من خمر جارية، وفي ذلك اشارة الى كثرتها وأنها لا تفني ولا تنفذ وفي الجنة أنهار من ماء عذب ومن لبن ومن خمر ومن عسل قال عز وجل ﴿مثل الجنة التي وعد المتقون فيها انهار من ماء غير آسن وأنهار من لبن لم يتغير طعمه وأنهار من خمر لذة للشاربين، وأنهار من عسل مصفى، ولهم فيها من كل الثمرات ومغفرة من ربهم كمن هو خالد في النار وسقوا ماء حميا فقطع امعاءهم﴾ سورة محمد/١٥.

ثم ان خمر الآخرة لا تسبب صداعا لشاربها ولا ذها بالعقلة وهذا هو معنى قوله تعالى ﴿لا يصدعون عنها﴾ أي بسببها واصل الكلام لا يصدر صداع لهم عنها لما فيها من المادة المسكرة كخمر الدنيا. ﴿ولا ينزفون﴾ ولا تذهب عقولهم بالكلية كما هو الشأن في خمر الدنيا وقد قرىء: ﴿لا يُصَدَّعُونَ عنها﴾ بضم الياء وفتح الصاد وتشديد الدال مبنيا للمجهول، وقرىء «لا يصَّدَّعون» بفتح الياء، وتشديد الصاد، وتشديد الدال وأصله (لا يتصدعون) ادغمت التاء في الصاد فصار (لا يَصَّدَّعون) ومعناها لا يتفرقون ومنه قوله تعالى ﴿يومئذ يصدعون﴾ والمعنيان جائزان فهم يجتمعون على الشراب ولا يفترقون عن هذه المجالس مع الأهل والأحباب أو مع الاخوان والخلان ولا يحصل لهم صداع أو تغير بسببها وقرىء ﴿ولا يُنْزِفُون﴾ بضم الياء وسكون النون

وكسر الزاي من أنزف ينزف يقال: أنزف الشارب إذا ذهب عقله أو شرابه ومنه قيل للسكران نزيف ومنزوف وقرىء ﴿ولا يُنْزَفُون﴾ بضم الياء وسكون النون وفتح الزاي يقال نزف الشارب كَعُنِيَ اذا ذهب عقله وفي المضارع يُنْزَفُ.

﴿وفاكهة مما يتخيرون﴾ معطوف على ما قبله وهو قوله تعالى ﴿بأكواب﴾ وقيل مما يتخيرون لأن الشأن في الفاكهة انها تختلف في الحجم واللون والطعم والرائحة فهي محل للتخير، والاستجواد ومما يستحسن ذكره ما قاله العلامة ان كثير في تفسيره قال: وهذه الآية دليل على جواز أكل الفاكهة على صفة التخير واستشهد بحديث عِكْرَاش لما أتى النبي ﷺ بثريد وأقبل عكراش يخبط بيده في جوانبه فقبض النبي ﷺ بيده وقال: يا عكراش: كل من موضع واحد فان الطعام واحد ثم أتى بِطَبَق فيه تمر أو رطب فجعل عكراش يأكل من بين يديه وجالت يد رسول الله ﷺ في الطبق فقال: يا عكراش: كل من حيث شئت فانه غير لون واحد. رواه الترمذي واستغربه [جامع الترمذي كتاب الأطعمة - باب ما جاء في التسمية في الطعام] وقدم الفاكهة على اللحم مع أن اللحم غذاء والعادة ان تكون الفاكهة بعد الغذاء لبيان انهم ليسوا في حاجة الى الغذاء كأهل الدنيا لأنهم لا يجوعون فيها فاللحم بالنسبة لهم أمر كمالي كالفاكهة ولأن رغبة أهل الجنة الى الفاكهة اشد من رغبتهم في اللحم لما في الفاكهة من اللذاذة والحلاوة وطيب الطعم وطيب الريح ولأن الفاكهة فضلاتها قليلة جدا ولا كذلك اللحم وان كان أهل الجنة لا يتغوطون ولا يتبولون، وقيل لأن المقام مقام شراب وأهل الشراب في الدنيا يقدمون الفاكهة في مجالس الشراب على اللحم فجاءت الآية على ما هو معهود عند المخاطبين في الدنيا وهو أسلوب بارع من أساليب الخطاب. ﴿ولحم طير مما يشتهون﴾ وقيل في

اللحم مما يشتهون لأن ماهية اللحم تكاد تكون واحدة وانما بتفاوت بحسب الطهي يعني من أراد شواءاً كان له ومن أراد محمرا كان له ومن أراد مسلوقا جيء له به.

﴿وحور عين كأمثال اللؤلؤ المكنون﴾ الحور: جمع حوراء وهي البيضاء وحوراء مؤنث أحور. وعين: جمع عيناء مؤنث أعين أي واسعات العينين كعيون الظباء أو بقر الوحش وأفعل فعلاء يجمع على فُعْل وكسرت العين في (عين) لمناسبة الياء.

و (كأمثال) أي أشباه (اللؤلؤ المكنون) يعني المحفوظ في صدفه الذي لا تناله الأيدي فيبقى له صفاؤه وبياضه وتبقى له دوائره واللؤلؤ حجر من الأحجار الكريمة وأصله حيوان بحري يفرز مادة يقي بها نفسه في صدفته فيكون منها هذا الجوهر المعروف اللؤلؤ وقد قرىء (وحور عين) بالرفع عطفا على (ولدان) يعني ويطوف عليهم حور عين، الولدان في المنازل العامة التي فيها يتزاورون، والحور العين في المنازل الخاصة التي بها يخلون ويتنعمون، أو مبتدأ والخبر محذوف يعني وفيها أي الجنة حور عين. وقرىء في السبع ايضا بالجر وقد اختلف فيما عطف عليه فقِيلَ عطف على قوله (بأكواب) ويكون العطف على المعنى لأن المراد بالطوف الطواف عليهم بانواع المشارب والفواكه والمآكل والتنعم ويكون التقدير ويتنعمون بحور عين ومثل ذلك قول الشاعر العربي:

اذا ما الغانيات برزن يوما وزججن الحواجب والعيونا

والعيون لا تزجج وانما تكحل ويكون المعنى وكحلن العيونا وقول الشاعر الآخر:

ورأيت زوجك في الوغى متقلدا سيفا ورمحا

يعني ومتنكبا رمحا. وقول الشاعر الآخر:

علفتهـا تبنـا ومـاء بـاردا   حـتى غـدت همالـة عينـاهـا

يعني وسقيتها ماء باردا. وفي الكتاب المعجز المبين (والذين تبوأوا الدار الآخرة والايمان من قبلهم يحبون من هاجر اليهم) يعني وصدقوا الايمان.

ومن المفسرين من أجرى العطف على قوله (بأكواب) وقال ان الولدان تطوف بالحور العين عليهم لعرض انواع اللذات عليهم المأكول والمشروب والمنكوح كما يـأتي الخـدام بـالسراري والإمـاء للمُلُوك ويعرضوهن عليهن وذهب الزمخشري المفسر الى انه معطوف على جنات بتقدير مضاف أي هم في جنات ومصاحبة حور عين.

﴿جزاءاً بما كانوا يعملون﴾ منصوب اما انه مفعول لأجله أي لأجل مجازاتهم بما كانوا يعملون من الأعمال الصالحات ويجوز أن يكون منصوبا على المصدر بفعل محذوف والتقدير جازاهم الله جزاءاً بما كانوا يعملون.

﴿لا يسمعون فيها لغوا ولا تأثيما الا قيلا سلاما سلاما﴾ ذكر لنعيم آخر من نعيم الجنة التي وعدها السابقون (اللغو) هو الباطل وكل ما لا فائدة ولا خير فيه والتأثيم هو كل ما يؤثم من الكذب والغيبة والتميمة وامثالها مما هو من النقائض الخلقية أو المراد بالتأثيم الهجر والفحش من القول كالسباب والشتيمة والقذف ونحوها مما تموج بها الحياة الدنيا وليس المراد أن في الجنة لغوا ولكن لا يسمعونه وأسباب للأثم ولكنهم لا يتعاطونها وانما المراد نفي اللغو، ونفي ما يؤثم، فكأنه قال لا لغو فيها ولا تأثِيمَ فلا سماع لشيء منها (الا قيلا سلاما سلاما) الاستثناء هنا منقطع لأن قول السلام لا يعتبر لغوا ولا تأثيما القيل والقول بمعنى واحد الأول قلبت واوه ياء لوقوعها بعد الكسرة (وسلاما) مفعول به

لقيلا على ان المراد حِكاية لفظ السلام، أو بدل من قيلا لأن القيل هو السلام وانما كرر السلام لبيان اشاعة السلام وكثرته في الجنة فالجنة كلها سلام وأمان وكل من فيها يسلم بعضهم على بعض والملائكة يسلمون عليهم قائلين (سلام عليكم بما صبرتم فنعم عقبى الدار) وخزنة الجنة يسلمون عليهم وهم داخلون فيها (وسيق الذين اتقوا ربهم الى الجنة زمرا حتى اذا جاؤها وفتحت ابوابها وقال لهم خزنتها سلام عليكم طبتم فادخلوها خالدين) والله تبارك وتعالى يسلم عليهم. قال تعالى: ﴿سلام قولا من رب رحيم﴾.

قال تعالى: ﴿وأصحاب اليمين ما أصحاب اليمين (٢٧) في سدر مخضود (٢٨) وطلح منضود (٢٩) وظل ممدود (٣٠) وماء مسكوب (٣١) وفاكهة كثيرة (٣٢) لا مقطوعة ولا ممنوعة (٣٣) وفرش مرفوعة (٣٤) انا أنشأناهن انشاء (٣٥) فجعلناهن أبكارا (٣٦) عرباً أترابا (٣٧) لأصحاب اليمين (٣٨) ثلة من الأولين (٣٩) وثلة من الآخرين (٤٠)﴾.

الشرح والبيان

بعد أن بين الله أوصاف السابقين المقربين شرع سبحانه في بيان أحوال أصحاب اليمين ﴿وأصحاب اليمين ما أصحاب اليمين﴾ وأصحاب مبتدأ خبره ما أصحاب اليمين أيْ أَيِ شيء هم؟ والاستفهام هنا مراد به تفخيم أمرهم وتعظيم شأنهم يعني: هم قوم مؤمنون صادقون، وعظماء، شرفاء، فضلاء، يتعجب من إيمانهم وفضلهم وشرفهم وهم معطوف على قوله تعالى آنفا ﴿والسابقون السابقون أولئك المقربون في جنات النعيم﴾ من قبيل عطف الجمل على الجمل والتناسب ظاهر بين المعطوف والمعطوف عليه فكلا الفريقين مؤمن، وكلا الفريقين عمل عملاً صالحاً وليست لهم أعمال سيئة وان كان حال الأولين أكمل، وأعمالهم الصالحة أوفى وأكثر، وسبقهم الى الخيرات أتم وأشهر.

روى عن الضحاك ومجاهد أنهم كانوا يعجبون من وادي وج - واد بالقرب من الطائف ومن كثرة سدره، وطلحه فأنزل الله في وصف أصحاب اليمين قوله ﴿في سِدْرٍ مَخْضُودٍ﴾ والسدر: شجر النبق ومعنى مخضود أي مقطوع الشوك وبذلك انتفى عنه الايذاء فالنبق فاكهة محبوبة مستلذة عند العرب وليس فيه إلا أن يؤذي من يقطف ثمره بشوكه فنفى الله عنه هذه الصفة لأن الجنة لا أذى فيها ولا بلاء.

روى الحاكم وصححه في مستدركه، والبيهقي في سننه عن أبي أمامة قال: كان أصحاب رسول الله ﷺ يقولون: ان الله ينفعنا بالاعراب ومسائلهم. أقبل اعرابي ذات يوم فقال: يا رسول الله لقد ذكر الله في القرآن شجرة مؤذية، وما كنت أرى في الجنة شجرة تؤذي صاحبها قال: وما هي؟ قال: السدر فان له شوكا فقال رسول الله ﷺ: « في سدر

مخضود » خضد الله شوكه فجعل مكان كل شوكة ثمرة، وان الثمرة من ثمرة تفتق عن اثنين وسبعين لونا من الطعام ما فيها لون يشبه الآخر ويجوز أن يكون المراد بالعدد التحديد، وأن يكون المراد به التكثير.

وقيل المراد بالمخضود الموقر حملا مأخوذ من خضد الغصن إذ اثْنَاه وهو رطب مخضود ومَثْنِي الأغصان لكثرة ما يحمل من الثمر، وقد فسر الكلمة الإمام البخاري في صحيحه بالمعنيين فقال في تفسير سورة الواقعة « المخضود » الموقر حملا ويقال أيضا لا شوك له، والظرفية المستفادة من قوله « في » مجازية للمبالغة في تمتعهم وانتفاعهم بالتنعم فيه حتى كأنهم غارقون فيه. « وطلح منضود » الطلح بالحاء المهملة هو ثمر شجر الموز. ومعنى منضود: منظم غاية التنظيم بديع غاية البداعة واذا نظرت الى كِباَسة الموز عجبت من جمال الصنعة الإلٓهية، وحسن التنضيد وقد فسرها الإمام البخاري الطلح المنضود بالموز[١] وعلى هذا اكثر المفسرين. وقد أخرج غير واحد من أصحاب الكتب كعبد الرزاق، وعبد بن حميد، وابن جرير وابن مردويه، هذا المعنى عن علي كرم الله وجهه وكذا رواه جماعة عن ابن عباس رضي الله عنهم[٢] وأما الطلع - بالعين المهملة آخره - فهو ما يخرج من النخل قبل ان يصير ثمرا متكاملاً ومنه قوله تعالى ﴿ونخل طلعها هضيم﴾ وأما ما روى عن علي كرم الله وجهه من أنه كان يقرأ « وطلع منضود » فلا يصح وأحربها أن لا تكون ثابتة فهي مخالفة لرسم المصحف الامام الذي اجمع عليه الصحابة رضوان الله عليهم في عهد عثمان رضي الله عنه وأجمع عليه المسلمون من لدى عثمان الى اليوم، وما بعد اليوم حتى يرث الله الأرض وما عليها.

---

(١) صحيح البخاري - كتاب التفسير - تفسير سورة الواقعة.

(٢) الجمع باعتبار أن الترضية عن علي وابن عباس وأبيه العباس

«وظل ممدود» ممتد منبسط لا يزول ولا يحول، روى الشيخان وأحمد والترمذي وابن ماجه وغيرهم بأسانيدهم عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال «ان في الجنة شجرة يسير الراكب في ظلها مائة عام لا يقطعها اقرأوا ان شئتم وظل ممدود».

وقد يسألني سائل فيقول: ان الجنة ليس فيها شمس فمن أين يجيء الظل؟ والجواب ان الظل كما يحصل من ضوء الشمس يحصل من النور والجنة كلها نور الا ترى الاشجار في ضوء القمر في الدنيا تكون لها ظلال تجلب الى النفس الهدوء وراحة النفس وراحة الأعصاب. «وَمَاءٍ مَسكُوبٍ» جار ظاهر في غير أخدود ولا ينافي ذلك وصف الجنات بأنها تجري من تحتها الأنهار أي من تحت أشجارها لأن الجنة فيها النوعان الأنهار والماء الجاري على سطح الأرض وذلك لتتوفر لسكانها جميع اللذائذ والانتفاع بالمياه وما أحسن وما أحب الى الآذان من خرير الماء، ولا سيما اذا كانت الأرض مفروشة بالدر والحصباء.

«وفاكهة كثيرة» كثيرة في انواعها وفي اجناسها، وفي الوانها، ورائحتها، وكلمة فاكهة نكرة في سياق التمنن وذكر النعم فهي تعم كل أنواع الفواكه وألوانها، وأجناسها ثم إن فاكهة الجنة ليست كفاكهة الدنيا تنقطع فاكهة الصيف في الشتاء وفاكهة الشتاء في الصيف بل هي بأنواعها وأجناسها دائمة ثم هي ليست ممنوعة على أحد ممن يريد تناولها أو الأكل منها لأن الشأن في بساتين الدنيا انها محظورة الا على أصحابها أما هذه فلا.

واذا علمنا أن أعظم ما يتمناه أهل البداوة هو الشجر الأخضر الزاكي الملتف والظل الممتد الوارف والماء الجاري الذي لا يحتاج الى سانية، ولا رشاء، ولا دلاء علمنا الجو النفسي، والحس الوجداني الذي يستولي على البدوي حينما يسمع هذه الأوصاف للنعيم حتى ليخيل له انه

كائن فيه الآن ولذلك كانوا يذكرون الجنة في اشد المواقف هولا وأحرها. فهذا أنس بن النضر يقول يوم أحد اني لأجد ريح الجنة - ورب النضر - دون أحد ثم أخذ سيفه وما زال يقاتل حتى قتل شهيدا وبه بضع وثمانون جراحة ما بين ضربة بسيف أو طعنة برمح، أو رمية بسهم، حتى تمزق جسده وصار أشلاء فلم تعرفه الا أخته ببنانه وهذا هو جعفر بن ابي طالب يقول يوم مؤته:

يا حبذا الجنة واقترابها طيبة وباردا هواؤها
والروم روم قدرنا عذابها كافرة بعيدة انسابها
على إن لاقيتها ضرابها

«وفرش مرفوعة» اختلف المفسرون في تفسير الفرش هنا. فذهب بعضهم الى انها كناية عن النساء والزوجات وقد كانت العرب تكنى عن الزوجة باللباس، وبالفراش، وبالإزار فمن الأول قوله تعالى في الكتاب الكريم: ﴿هن لباس لكم وانتم لباس﴾ وهو من الكنايات البديعة جدا التي صادفت مَحَزَّ البلاغة والإعجاز وفي الحديث الصحيح المتفق عليه «الولد للفراش وللعاهر الحجر». أي للزوج صاحب الفراش وهي الزوجة.

ولما بايع رسول الله ﷺ الأنصار ليلة العقبة الثانية بايعهم على ان يمنعوه مما يمنعون منه نساءهم، وأبناءهم، فقام البراء بن معرور فأخذ بيد رسول الله ﷺ فقال والله لنمنعنك مما نمنع منه أُزُرَنا، فقد عنى بالأزر النساء.

ومعنى «مرفوعة» المراد الرفع المعنوي، أي مرتفعات الأقدار في جمالهن ونظافتهن وكمالهن سواء كن من الحور العين أو من الزوجات

اللاتي كهن لهم في الدنيا، وعلى هذا يكون قوله تعالى ﴿وانا أنشأناهن إنْشَاءً﴾ متصل بقوله وفرش مرفوعة غاية الاتصال ومنتظم معه غاية الانتظام ويكون الضمير «هن» عائد على الفرش بمعنى الزوجات.

وذهب بعض المفسرين الى ان المراد بالفرش جمع فراش هو الفرش المعروفة من غالي القماش وفاخر الثياب وأجمل الأنواع. ومعنى مرفوعة يعني على الأرائك والأسرة فالمراد الرفع الرفع الحسي وقد روى أحمد والترمذي وقال حديث حسن، والنسائي وغيرهم عن أبي سعيد الخدري عن النبي ﷺ أنه قال «عن قوله تعالى ﴿وفرش مرفوعة﴾: ارتفاعها لكما بين السماء والأرض ومسيرة ما بينهما خمسمائة عام ولا نستبعد ذلك من جهة العرُوج - العروج والنزول - فالعالم عالم آخر وراء طور العقل والمشاهدة والجنة كما في الكتاب الكريم ﴿عرضها السماوات والأرض﴾ واذا كان هذا عرضها فما بالك بطولها وفي الحديث الذي رواه ابن مرويه وغيره «ما السماوات السبع والأرضون السبع بجانب الكرسي الا لحلقة في ترس - وهو المجن الذي يستتر به المجاهد في الحرب وفيه ألوف الحلقات - وما الكرسي بجانب العرش الا كحلقة في فلاة» يعني صحراء فكم ذا يكون سعة ملك الله تبارك وتعالى ؟! إن علماء الفلك تكلموا في سعة الكون وما فيه من النجوم والكواكب والأفلاك كلاما يدعو الى وجوب الايمان بالله وكل ما قالوه يعتبر شرحا لهذا الحديث الشريف فاعتبروا يا أولى الأبصار.

فافتح - ايها المسلم - عقلك وقلبك وستجد أن كل ما صح وثبت عن المعصوم ﷺ أمور كلها داخلة تحت الامكان - اللهم انفعنا بأبصارنا وبصائرنا في الإيمان بك وبصفاتك وملكوتك.

ولما كان الحديث عن الفرش يستدعي الحديث عن من هم على الفرش وهم الرجال والزوجات ناسب أن يذكر ما يتعلق بالزوجات

فقال عز شأنه. «إنا أنشأناهن انشاء» فعلى أي وجه فسرنا الفرش فالمناسبة موجودة والآيات آخذ بعضها بحجز بعض ﴿انا انشأناهن انشاء﴾ الضمير يعود على نساء الدنيا اي أعدناهن على خير ما يكن وعلى أحسن ما يكن جمالا وكمالا حتى كأنهن قد أنشأهن الله انشاء جديدا وقد أخرج ابن جرير، وعبد بن حميدر والترمذي وآخرون عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ في الآية ﴿ان المنشأت اللاتي كن في الدنيا عجائز عمشا رمصا﴾ ومن اللطائف النبوية ما أخرجه الترمذي في كتابه «الشمائل المحمدية» وابن المنذر وغيرهما عن الحسن قال «أتت عجوز فقالت يا رسول الله أدع الله أن يدخلني الجنة، فقال« يا أم فلان إن الجنة لا تدخلها عجوز »فولت تبكي، فقال اخبروها انها لا تدخلها وهي عجوز ان الله تعالى يقول ﴿إنا أنشأناهن انشاء فجعلناهن ابكارا عربا أترابا﴾ واما إن أردنا بالمنشأت الحور العين اللاتي يخلُقُهن الله في الجنة لأصحاب اليمين فيكون الانشاء على معناه الحقيقي وهو الايجاد على غير مثال سبق وهو الابداع يعني انا انشأناهن انشاء جديدا من غير ولادة ولا خلق أول والأولى هو الأول لأنه الذي تدل عليه الأحاديث والآثار.

« فجعلناهن ابكارا » تفسير لما قبله فالفاء تفسيرية وجعل اما بمعنى صيَّر فتكون متعدية لمفعولين الضمير و« ابكارا » وإما بمعنى أوجد، فأبكارا حال من المفهول.

«عُرباً أتراباً» العرب جمع عروب والعروب هي المتحببة الى زوجها وقيل الحبيبة الى زوجها والثاني لازم للأول لأن من تحببت الى زوجها بما يؤنسه ويدخل على نفسه السرور والسعادة تكون حبيبة الى زوجها وقد قرىء في السبع عُرُبا بضم الراء وعُرْبا بسكونها تخفيفا.

والاتراب جمع ترب والمراد المتوافقات في السن وذلك حتى لا يمتد

طرف زوج الى غير زوجته يقال في النساء أتراب وفي الرجال أقران أي متساوون أو متقاربون في السن.

وفي الحديث الذي رواه الترمذي عن النبي ﷺ «يدخل أهل الجنة الجنة جردا مردا مكحلين أبناء ثلاثين أو ثلاث وثلاثين».

«لأصحاب اليمين» والمراد بذلك أنهن وأنهم على كمال الشباب والجمال قيل هو متعلق بأنشأناهن، والذي يترجح عندي أن يكون خبراً لمبتدأ محذوف والتقدير هذا النعيم المذكور لأصحاب اليمين.

«ثلة من الأولين وثلة من الآخِرِين» خبر لمبتدأ محذوف يعني هم ثلة من الآخرين. والثلة هم الجماعة الكثيرة والمراد بالأولين والآخرين من هذه الأمة وهو ما رجحته وأقمت عليه الأدلة.

قال تعالى: ﴿وأصحاب الشمال ما أصحاب الشمال(٤١) في سموم وحميم(٤٢) وظل من يحموم(٤٣) لا بارد ولا كريم(٤٤) انهم كانوا قبل ذلك مترفين(٤٥) وكانوا يصرون على الحنث العظيم(٤٦) وكانوا يقولون أئذا متنا وكنا ترابا وعظاما أءِنا لمبعوثون(٤٧) أو ءاباؤنا الأولون(٤٨) قل ان الأولين والآخرين(٤٩) لمجموعون الى ميقات يوم معلوم(٥٠)﴾.

«وأصحاب الشمال ما أصحاب الشمال» أصحاب الشمال مبتدأ وخبره الجملة من المبتدأ والخبر في قوله ﴿ما أصحاب الشمال﴾ يعني بقوله ما اصحاب الشمال انهم المعروفون بالكفر بالله وكفران النعم والاغراق في المعاصي والملذات وفي هذا الاسلوب تهويل وتفظيع لشأنهم.

وأصحاب الشمال أي الكبائر والمعاصي بدليل ما سيأتي بعد وهو قوله تعالى ﴿وكانوا يصرون على الحنث العظيم وكانوا يقولون أئذا متنا وكنا ترابا وعظاما أئنا لمبعوثون أو آباؤنا الأولون﴾ والظاهر ان المراد بهم هنا الكفار وليس المراد بهم ما هو اعم من الكفار.

﴿في سموم وحميم﴾ السموم هي الريح الحارة التي تنفذ في مسام البدن، والمراد هنا حر النار وفيحها ونفحُها على سبيل المجاز بالاستعارة والتنوين للتهويل وكذلك في الذي بعده. والحميم الماء الحار الشديدة الحرارة وذلك انهم اذا احرقت النار اكبادهم وامعاءهم واجسامهم يفزعون الى ما يخفف من حر الاحراق وآلامه وذلك كالذي يفزع من النار الى الماء يطفىء الحر فيجده حميا حارا في نهاية الحراة والغليان. وفي الكتاب الكريم ايضا ﴿وسقوا ماء حميا فقطع امعاءهم[1]﴾ قوله ﴿يطوفون بينها - أي النار - وبين حميم آن[2]﴾ والقرآن الكريم يفسر بعضه بعضا.

﴿وظل من يحموم لا بارد ولا كريم﴾ وفي هذا من التهكم ما فيه «اليحموم الدخان الأسود الشديد الاسوداد مأخوذ من الحُمَمَ وهو الفحم والفحم شديد السواد» ومن هنا إمَّا بيانية لأن الظل هو اليحموم ودخان شديد السواد كذلك وتسميته ظلا على سبيل التشبيه وإما ابتدائيه فالجار والمجرور متعلق بمحذوف، يعني ان اهل النار يفزعون من السموم الى ما يخيل اليهم أنه ظل كما يفزع أهل الدنيا فيجدونه ظلا من يحموم اي دخان حار أسود وفي هذا من التهكم بهم والسخرية منهم ما لا يفي به البيان.

ثم وصف الله تبارك وتعالى هذا الظل الذي ليس فيه صفة من صفات الظلال بقوله ﴿لا بارد ولا كريم﴾ فالشأن في الظل ان يكون باردا وهذا ليس فيه برد مَّا والشأن في الظل أن يكون كريما أي فيه نفع للبدن أو النفس أو الجوارح وهذا ليس فيه نفع ما والعرب تعبر عن الشيء الذي فيه نفع بالكريم، وعن ضده بنفي الكرم عنه وهما

---

(١) سورة القتال الآية ١٥ (٢) سورة الرحمن ٤٤.

صفتان لظل، واللام الأولى للنفي، والثانية لتأكيد النفي ولما كانت كلمة الظل المراد بها التهكم والسخرية قد توهم بعض السامعين أن فيه شيئا من منافع الظل فقد نفى ذلك نفيا مؤكدا، وفي هذا الاسلوب تهكم بهم وتعريض بأن الذين يستحقون الظل البارد الكريم غيرهم من السابقين المقربين، او من أصحاب اليمين، ثم بين سبحانه وتعالى السبب في استحقاقهم هذا العذاب الأليم المهين، فقال ﴿انهم كانوا قبل ذلك مترفين﴾ والجملة في مقام التعليل لما سبق.

المترف هو المبالغ في التنعم بأنواع النعيم حتى جعل هذا الترف ختما على قلوبهم فلا يعقلون ولا يؤمنون وصماً في آذانهم فلا ينتفعون بما يسمعون، وغشاوة على ابصارهم فلا يتعظون بما يبصرون من آيات الله الكونية والأنفسية والآفاقية، مع أن في كل شيء في الكون آيات ودلائل تدل على أنه الخالق الواحد المدبر، ومن شأن المترفين انهم لا يستمعون الى حق ويتعظمون على الانبياء والمرسلين بل ويسبون الله ويكذبونه، وأنهم يسفكون الدماء وينتهكون الأعراض وينتهبون الأموال. وصدق الله تعالى حيث يقول ﴿ان الانسان ليطغى ان رآه استغنى[1]﴾ ويقول﴿ويوم يعرض الذين كفروا على النار اذهبتم طيباتكم في حياتكم الدنيا واستمتعتم بها فاليوم تجزون عذاب الهون بما كنتم تستكبرون في الأرض بغير الحق وبما كنتم تفسقون[2]﴾ يعني يقال لهم «أذهبتم طيباتكم في حياتكم الدنيا» وذلك على سبيل التقريع والتوبيخ، ولما دخل سيدنا عمر الفاروق على سيدنا رسول الله ﷺ في المشربية[3] التي اعتزل نساءه شهرا وجد رسول الله ﷺ نائما على حصير بدون

---

(١) سورة العلق.

(٢) سورة الاحقاف / ٢٠.

(٣) حجرة كان يصعد اليها بدرج يسكنها عند الاعتزال.

فراش حتى أثر الحصير في جسده الشريف ولم يجد فيها الا قدحا من شعير وقربة باليه للماء، وقرظا للدبغ وبعض جلود لم يتم دبغها فبكى عمر رضي الله عنه فقال له النبي ﷺ ما يبكيك يا عمر؟ قال لأن رسول الله ﷺ في هذا وكسرى وقيصر فيما هم فيه!!! فقال النبي ﷺ «أما ترضى ان تكون لهم الدنيا ولنا الآخرة!!!». وليس اضر على الأمم في عقائدها وفي شرائعها وفي اخلاقها وسلوكها من المبالغة في الترف انه يميت الايمان من القلوب ويزيل الحياة من النفوس ويبلد الشعور ويفسد السلوك - ويَحُل عرى الفضائل من الاعناق ثم ينتهي بالأمم الى الضعف والانحلال، فالهلاك والزوال، وصدق الله حيث يقول ﴿وإذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها ففسقوا فيها فحق عليها القول فدمرناها تدميرا[1]﴾.

واني لأحذر قومي المسلمين والعرب من عواقب الترف والاغراق في الملاهي والملذات والشهوات.

﴿وكانوا يصرون على الحنث العظيم﴾ يصرون أي يقيمون ويداومون. الحنث العظيم هو الإثم والذنب العظيم يعني على ما هو سببها وهو الشرك وقد روى تفسيره بالشرك عن كثير من السلف ولا شيء من الكبائر أعظم من الشرك، وقيل المراد به الكبائر كلها بما فيها الشرك وقيل الحنث العظيم هو انكارهم البعث، وقال تاج الدين السبكي في «طبقاته» سألت الشيخ يعني والده الشيخ تقي الدين - ما الحنث العظيم؟ قال: هو القسم على انكار البعث المشار اليه لقوله تعالى ﴿واقسموا بالله جهد ايمانهم لا يبعث الله من يموت﴾ وحسن هذا القول أن الحنث يغلب استعمالاته في عدم البر بالقسم وليس من شك في

(١) الاسراء ١٦ ومعنى: «أمرنا مترفيها» يعني أمرناهم بالطاعة فعصوا وفسقوا فيها.

كذبهم فيما اقسموا عليه. وعلى الأول يكون عطف قوله تعالى ﴿وكانوا يقولون...﴾ من قبيل عطف المغاير، وعلى الثاني من قبيل عطف الخاص على العام وعلى الثالث من قبيل عطف التفسير. قوله تعالى: ﴿وكانوا يقولون ائذا متنا وكنا ترابا وعظاما أئنا لمبعوثون، أو آباؤنا الأولون﴾ حكاية لمقالة أصحاب الشمال وهي انكارهم البعث، واذا ظرفيه منصوبة بفعل يدل عليه قولهم «أئنا لمبعوثون» يعني اذا متنا.. نبعث وانما لم يعمل في الظرف قوله ﴿لمبعوثون﴾ لان ما بعد الهمزة الاستفهامية لا يعمل فيما قبلها ومعنى وكنا ترابا وعظاما أي صار بعض أجزائنا من اللحم والجلد ونحوهما ترابا، وصار بعض اجزائنا عظاما نخرة بالية. وهم ينكرون البعث مطلقا ولكنهم ذكروا هٰذين الحالين لتأكيد انكارهم للبعث لأن هاتين الحالتين في نظرهم هما أبعد ما يكون عن الحياة، وقدم التراب لأنه أبعد الأمرين عنها أو لأن معظم الجسد يصيرا ترابا. وقد روى الحاكم وصححه عن ابن عباس قال: جاء العاصي بن وائل الى رسول الله ﷺ بعظم حائل ففته فقال: يا محمد أيبعث هذا بعد ما أرم أي صار رمياً؟ قال «نعم يبعث الله هذا، ثم يميتك، ثم يحييك، ثم يدخلك نار جهنم - فنزل قوله تعالى ﴿أولم يرا الانسان انا خلقناه من نطفة فاذا هو خصيم مبين وضرب لنا مثلا ونسى خلقه قال: من يحيي العظام وهي رميم، قل يحيها الذي أنشأها أول مرة وهو بكل خلق عليم الذي جعل لكم من الشجر الأخضر نارا فاذا انتم منه توقدون أوليس الذي خلق السموات والأرض بقادر على أن يخلق مثلهم، بلى وهو الخلاق العليم انما أمره اذا أراد شيئاً أن يقول له كن: فيكون، فسبحان الذي بيده ملكوت كل شيء واليه ترجعون، وقوله ﴿أئنا لمبعوثون﴾ أو آباؤنا الأولون﴾، مبعوثون: أي معادون الى الحياة بعد الموت، وهذا هو محط الانكار في قولهم «أئذا متنا وكنا

ترابا وعظاما والهمزة الثانية للانكار ايضا فهي مؤكدة للأولى والاثيان «بإن» لتأكيد الانكار ايضا. وليست الهمزة الداخلة على «أئنا» لإنكار التأكيد؟ لأنه لو كان كذلك لجاز أن يكونوا شاكين في البعث مع أن المخاطبين ينكرون البعث انكارا باتا.

قوله تعالى ﴿أو آباؤنا الأولون﴾ أصل الكلام وآباؤنا الأولون فهو عطف إنكار على إنكار ولما كان الاستفهام له الصدارة قدمت الهمزة على حرف العطف. وآباؤنا معطوف على الضمير المستكن في قوله ﴿لمبعوثون﴾ وهو نحن، والفاعل همزة الاستفهام ولا يضر عمل ما قيل الهمزة وهو المعطوف، عليه، وفيا بعدها وهو المعطوف لأن الهمزة مكررة للتأكيد ومثل ذلك يتسامح فيه. وهو ترق في الإنكار من بعثهم الى ما هو أبعد في نظرهم وهو بعث آبائهم الأولين لأنه اذا كانوا ينكرون بعث أنفسهم ويبطلونه. فهم لانكار بعث آبائهم اشد وأبطل له وذلك لبعدهم وقدم العهد بهم.

وما قلناه في توجيه العطف في قوله تعالى ﴿أو آباؤنا الأولون﴾ من ان الأصل وأو آباؤنا الأولون هو أحد وجهين للمفسرن في هذا التركيب وأمثاله وهو ﴿أفلا تعقلون﴾ ﴿أفتطمعون﴾ ﴿وأفلا تتذكرون﴾... والوجه الثاني أن المعطوف عليه محذوف ويقدر في كل مقام بما يليق به وما يدل عليه الكلام وهو يقدر هنا أنبعث نحن وآباؤنا الأولون، فيكون أباؤنا معطوفا على الضمير المستكن في نبعث وهو نحن، ويكون الفاصل نحن المؤكدة وهذا على قراءة جمهور القراء بفتح الواو، وأما على قراءة ابن عامر «أو» بسكون الواو، على انها حرف عطف، فيكون أباؤنا مبتدأ، والأولون صفته والخبر محذوف يعني أو أباؤنا الأولون يبعثون ويكون الكلام من قيل عطف الجملة على الجملة، و«أو» على هذه القراءة المتواترة حرف عطف مثل

الواو، وورود «أو» بمعنى الواو - هذا أمر مستفيض في اللغة العربية الشريفة، ولا يجوز على هذه القراءة عطف أباؤنا على الضمير المستكن في قوله «مبعوثون» اذ لا فاصل حينئذ بين المعطوف والمعطوف عليه وهو الضمير المتصل، وهذا مبني على ما قعَّده ائمه النحو وأصلوه عن طريق إستقراء كلام العرب ويكون «آباؤنا» مبتدأ، والخبر محذوف والتقدير، وآباؤنا الأولون يبعثون.

والذي ينقدح في ذهني أن القرآن الكريم هو أوثق المصادر لمعرفة اللغة العربية وقواعدها، فاذا ورد فيه أسلوب من الأساليب اللغوية والنحوية فليكن ذلك أساساً للقاعدة، أية قاعدة، وحينئذ لا تلتفت الى قول فلان وفلان من النحويين.

﴿قل أن الأولين والآخرين لمجموعون الى ميقات يوم معلوم﴾. قل يا نبي الله - ردا على هؤلاء واحقاقا للحق إن الأولين من الأمم كلها ومنها اباؤكم، والآخرين من الأمم كلها ومنهم انتم وقدم الأولين على الآخرين مراعاة للترتيب الطَّبَعِي، وايضا فللمبالغة في الرد عليهم لأن انكارهم لبعث أبائهم هذا اشد وأبعد من انكارهم لبعثهم على ما قالوا فبدأ بما هو الأبعد في نظرهم ليكون أدل على امكان البعث لابائهم ولهم ومعنى لمجموعون اي لمنتهون الى هذا الميقات - والميقات، مفعال من الوقت، والميقات هو ما وقت به الشيء اي حد به وهو أعم من أن يكون مكانا أو زمانا - فمن الميقات المكاني قولهم مواقيت الأحرام وهي الحدود التي لا يتجاوزها من يريد دخول مكة محرما بأحد النسكين: الحج والعمرة، ومن الثاني قوله تعالى ﴿فتم ميقات ربه أربعين ليلة﴾، والمراد هنا الميقات الزماني - واضافة الميقات الى اليوم اضافة بيانية، مثل خاتم فضة - يعني الى ميقات هو يوم معلوم، وهو يوم القيامة، وسمي يوم القيامة ميقاتا لأنه أمر وقت به الدنيا وجعل

غاية لها ووصف يوم القيامة بأنه معلوم لأنه معلوم عند الله تبارك وتعالى والكلام في معنى القسم فكأنه قال والله ان الأولين والآخرين.. ويحسن هذا المعنى انهم اقسموا بالله جهد ايمانهم لا يبعث الله من يموت فرد الله عليهم بقسم في مقابل قسمهم، ولكن اين قسمهم من قسم الله، ان قسمهم حنث وكذب، وقسم الله مبرور وصادق - يعني قل يا رسول الله لهؤلاء المنكرين للبعث انكم منتهيون ومساقون سوقا الى يوم القيامة، وحينئذ ستبعثون وتنشرون وتحشرون وتحاسبون وسترون البعث حقيقة واقعة لا شك فيها وحينئذ ستقولون وقد بعثتم ﴿يا ويلنا من بعثنا من مرقدنا﴾ فيرد عليكم ﴿هذا ما وعد الرحمن، وصدق المرسلون﴾[1] وقد ساق الله تبارك وتعالى البعث في هذا الموضع سياق الأمور المسلمات لأنه سبحانه قد أقام الأدلة العقلية على امكان البعث ووقوعه لا محالة في مواضع أخرى من الكتاب المعجز المبين.

﴿ثم إنكم أيها الضالون المكذبون(٥١) لآكلون من شجر من زقوم(٥٢) فمالئون منها البطون(٥٣)، فشاربون عليهم من الحميم(٥٤)، فشاربون شرب الهيم(٥٥)، هذا نزلهم يوم الدين(٥٦)﴾ شروع في بيان ما أعده الله للكفار الضالين والمكذبين للبعث والنشور من أنواع العذاب الأليم، وأن مآلهم الى جهنم وبئس المصير.

---

(١) سورة يس/٥٢

التفسير والبيان

﴿ثم انكم ايها الضالون المكذبون لآكلون من شجر من زقوم﴾. ثم حرف عطف وهي: للترتيب مع التراخي، والمعطوف عليه: قوله تعالى: ﴿ان الأولين والآخرين﴾ أي: ثم قل - يا رسول الله - انكم ايها الضالون عن الهدى والحق بسوء اختياركم وفساد تصرفكم وعدم اتباعكم هدايات الرسل والأنبياء، المكذبون بالله وبالبعث او المكذبون بالبعث.

﴿لآكلون من شجر من زقوم﴾ من في ﴿من شجر﴾ ابتدائية وقيل زائدة ومن قوله ﴿من زقوم﴾ بيانية أي شجر هو زقوم، والزقوم: شجرة كريهة المنظر، مرة الطعم خبيثة الرائحة ينبتها الله في النار لتكون طعاما لأهلها.

وقد ذكر الله تبارك وتعالى شجرة الزقوم بقوله: ﴿ان شجرة الزقوم طعام الأثيم كالمهل يغلي في البطون كغلي الحميم[1]﴾ وقوله تعالى: ﴿أذلك خير نزلا أم شجرة الزقوم. انا جعلناها فتنة للظالمين. انها شجرة في أصل الجحيم. طلعها كأنه رؤوس الشياطين. فانهم لآكلون منها فمالئون منها البطون ثم ان لهم عليها لشوبا من حميم. ثم ان مرجعهم لالى الجحيم[2]﴾ وذكرها بوصفها لا باسمها فقال عز من قائل ﴿والشجرة الملعونة في القرآن﴾ أي الملعون آكلها، وقد روى ابن مردويه في تفسيره، والبيهقي في «البعث» عن ابن عباس: أنها شجرة الزقوم.

وهكذا ترى أن الآيات يشرح بعضها بعضا ويكمل بعضها بعضا.

---

(١) الدخان: ٤٣ - ٤٦.

(٢) الصافات: ٦٢ - ٦٨.

ولقد كان أهل مكة والمشركون يعجبون ويقولون: كيف تنبت شجرة في النار، والنار تحرق الشجر؟ ولا يزال - في الدنيا - من يقول هذا وأحب أن أقول لهؤلاء: ان قياس الغائب من أحوال الآخرة على الشاهد من احوال الدنيا لا يجوز، والله القادر على أن يجعل النار تحرق الشجر قادر على أن ينبت في جهنم نوعا من الأشجار لا تأكله النار. وقد توصل العقل البشري اليوم الى صنع ثياب تقي من النار وتحول بينها وبين احراق الأجسام أفيعجز القادر على كل شيء والعليم بكل شيء والشهيد على كل شيء أن يوجد شجرا في النار، وقد توصل الى شبيهه الإنسان؟ فاعتبروا واتعظوا يا أولى الألباب ومن قبل رمى الخليل عليه الصلاة والسلام في النار فقال الله لها ﴿كوني بردا وسلاما على ابراهيم﴾ فكانت، فما الداعي للعجب؟!

قوله ﴿فمالئون منها البطون﴾ مرجع الضمير في منها «عائد على شجر» وأنث الضمير باعتبار المعنى لأن المراد بالشجر هي الشجرة المذكورة في غير هذه السورة وكأن الله تبارك وتعالى بارجاع الضمير مؤنثا يُريد جذب انتباهنا الى أن المراد بها ما ذكر في السور الأخرى وهو أسلوب عجيب من أساليب القرآن العظيم قوله: ﴿فشاربون عليه من الحميم﴾ عاد الضمير على شجر هنا مذكرا باعتبار اللفظ باعتبار المعنى، او الشجر يذكر ويؤنث، أو يكون الضمير عائدا على لفظ ﴿زقوم﴾ وهو مذكر ايضا.

والذي يظهر لي - والله أعلم - أن بجانب النار بحرا أو بحاراً من حميم فاذا ما عطش أهل النار بسبب أكلهم ما يسبب العطش ويسبب حر النار يطلبون أن يُسقوا ماء عسى أن يخفف من حرارة بطونهم فيذهب بهم الى هذا الماء، فيعبون منه فاذا هو حميم يقطع امعاءهم ويسبب لهم حرارة الى حرارة وهو تفنن في أنواع العذاب وتهكم بأهل

النار ليس بعده تهكم، أعاذنا الله - ومن نحب - من لهب النار ومن الحميم الحار.

قوله ﴿فشاربون شرب الهيم﴾ قرأ الأئمة: نافع، عاصم، حمزه: شرب بضم الشين، وقرأ الباقون بفتح الشين، وهما لغتان فصيحتان. تقول العرب: شربت شَرْباً، وشُرْباً، وشِرْباً، وشُرُبا بضمتين. وقد قيل: ان الشرَّبَ والشُّرْب مصدران بمعنى، وقيل: المصدر: شرب بفتح الشين، وأما الاسم فهم الشرب بضمها. وأما الشرب بكسر الشين فهو: المشروب كالطحن، بمعنى المطحون، ويطلق الشرب على النصيب من الماء، ومنه قوله تعالى: ﴿قال هذه ناقة لها شرب ولكم شرب يوم معلوم﴾ والهيم: جمع هيماء، وهي الابل العطاش، والابل من شأنها أن تشرب كثيرا ليكفيها الماء اياما فما بالك اذا كانت عطاشا؟ والمراد أنهم يشربون منه شربا كثيرا جدا، وقيل: المراد بالإبل المرضى بداء الهُيَام - بضم الهاء - وهو داء يصيب الابل فتعطش عطشا شديدا، وكلما شربت ازدادت عطشا. يقال: جمل أهيم وناقة هيماء، وهذا الثاني أبلغ في الدلالة على المراد، ومن شواهد أنه داء قول قيس بن المُلَوَّح:

يقال به داء الهيام أصابه وقد علمت نفسي مكان شفائها

يريد أن الحب برح به حتى صار داء ودواء هذا الداء هو وصل محبوبته قوله: ﴿هذا نزلهم يوم الدين﴾ النزل: هو ما يعد للضيف على عجل اذا نزل ثم يتفنن له فيما بعد بما لذّ وطاب، فاذا كان كل هذا نزلهم يوم القيامة، فما بالك بما يقدم لهم من صنوف العذاب وألوان فيما بعد؟ انه لأمر لا يحيط به الوصف ولا يقدر على أن يفصح عنه البيان. وفي هذا التهكم الشديد ما فيه فهو مثل قوله تعالى ﴿فبشرهم بعذاب أليم﴾.

قوله تعالى: -

﴿نحن خلقناكم فلولا تصدقون(٥٧) أفرأيتم ما تمنون(٥٨) أأنتم تخلقونه أم نحن الخالقون(٥٩) نحن قدرنا بينكم الموت وما نحن بمسبوقين(٦٠) على أن نبدل أمثالكم وننشئكم في ما لا تعلمون(٦١) ولقد علمتم النشأة الأولى فلولا تذكرون(٦٢)﴾.

التفسير والبيان

شروع في بيان أنه هو الخالق للناس ابتداء، وهو المعيد لهم انتهاء، ولولا تحضيضيه، والفاء عاطفة لترتيب الحض على التصديق، على تقرير حقيقة خلقه لهم ومتعلق قوله ﴿تصدقون﴾ محذوف تقديره: فلولا تصدقون بأني أنا الخالق للخلق فان قيل: كيف: يحضهم على التصديق بأنه الخالق وهم مصدقون؟ الا ترى الى قوله تعالى: ﴿ولئن سألتم من خلقهم ليقولن الله فأنى يؤفكون﴾.

والجواب: ان القوم لما كانت أعمالهم تخالف أقوالهم في الاعتراف بالخالق جعل اعترافهم كلا اعتراف، ولو كانوا صادقين فيما قالوا لما عبدوا الأصنام ولما أشركوهم مع الله وأضفوا عليهم صفة النفع والضر وأنها شفعاؤهم عند الله وصدق الله حيث قال: ﴿وما يؤمن أكثرهم بالله الا وهم مشركون[1]﴾ ويؤيد أن متعلق التصديق الخلق أن الكلام فيما بعد في اقامة الأدلة على أنه الخالق المتفرد بالخلق ويجوز أن يكون متعلق التصديق: البعث، يعني: فلولا تصدقون ويؤيد هذا أن السياق كان في قضية استبعادهم البعث حيث قالوا: ﴿أئِذَا متنا وكنا ترابا وعظاما أئنا لمبعوثون، أوَ آباؤنا الأولون﴾.

ولا مانع عندي من أن يكون متعلق التصديق الخلق والبعث معا، وبذلك تكون الآية ارتبطت بما قبلها من انكار البعث، وبما بعدها من إقامة الأدلة على أنه الخالق المتفرد بالخلق.

ثم قال سبحانه، مقيما الأدلة على الخلق فقال: ﴿أفرأيتم ما تمنون﴾ والهمزة مقدمة من تأخير وأصل الكلام «فأرأيتم ما تمنون» ثم قدمت

(١) سورة يوسف/١٠٦

الهمزة لأن لها الصدارة في الكلام. وأرأيتم بمعنى أخبروني سواء جعل الرؤية علمية أو بصرية لأن العلم والإبصار من أسباب الأخبار فقد أطلق السبب وأراد المسبب على سبيل المجاز المرسل التبعي و﴿ما﴾ اسم موصول صلته ما بعده والمراد ما يقذفه الرجال في أرحام النساء من النطف، وتمنون: من أمني الرباعي، وقرىء في غير السبع «ما تَمْنُون» بفتح التاء من منى النطفة، وسميت النطفة منيا لأنها تمنى وتصب، ومنه سميت «مِنَى» لكثرة ما يمنى ويراق فيها من الدماء. وهذه النطفة هي المرادة من قوله تعالى: ﴿فلينظر الانسان مم خلق﴾؟. ﴿خلق من ماء دافق﴾ أي مدفون لقوة القذف به «أأنتم تخلقونه أم نحن الخالقون» الضمير فى قوله تعالى ﴿تخلقونه﴾ يعود على ما يتكون من المنى بمعنى أأنتم تخلقون ما يتكون ويحصل منه. والمراد بالخلق التقدير والتطوير للنطفة من نطفة الى علقة، الى مضغة، الى عظام وغضاريف، ثم كسوة العظام لحما ثم نفخ الروح فاذا به يصير بشرا سويا تام الخلق. وأم اما متصلة يعني أأنتم تخلقونه أم نحن؟ وهم لم يزعموا قط أنهم الخالقون لأنفسهم ولا لغيرهم فتعين أن يكون سبحانه هو الخالق فالترديد بين الأمرين يقصد به في الحقيقة اثبات ان الله تعالى هو الخالق ويجوز أن تكون أم منقطعة بمعنى: بل والهمزة والتقدير بل أنحن الخالقون، والهمزة هنا للتقرير بأنه هو الخالق، ودليل آخر يدل على انني الخالق والمتفرد بالتصرف في الكون وهو قوله تعالى ﴿نحن قدرنا بينكم الموت﴾ أي قسمناه عليكم ووقتنا موت كل واحد منكم بوقت معين محدد لا يتقدم عنه ولا يتأخر حسب مشيئتنا المبنية على الحكمة البالغة التي لا تدركها عقولكم ولا تصل اليها مداركم وصدق الله ﴿فإذا جاء أجلهم لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون[1]﴾ فاذا كنتم

---

(١) سورة الأعراف/٣٤

تعتقدون أن هناك آلهاغيري يحيي ويميت فلتستعينوا به وبمن تشاؤون في رد قضائي عليكم بالموت وما انتم ولا هم بمستطعين وإن جادلتم في ذلك فها أنذا أتحداكم ان تردوا الموت عن انفسكم، فادفعوا الموت عن انفسكم ان كنتم صادقين فيما تزعمون.

وبهذا التفسير والتقرير البديع تكون الآية الثانية دالة ايضا على انه الاله المتفرد بالخلق وهو القادر على الاحياء والاماتة ﴿وما نحن بمسبوقين على أن نبدل أمثالكم وننشئكم فيما لا تعلمون﴾ بمسبوقين أي بعاجزين أما من قبيل المجاز المرسل وهو اطلاق الملزوم فهو مسبوق وارادة اللازم، وهو عاجز لأن المسبوق عاجز عن ادراك السابق، واما من قبيل الاستعارة التصريحية التبعية وذلك بتشبيه العجز بالمسبوقية ثم الاشتقاق من المسبوقية مسبوق بمعنى عاجز. والأمثال: جمع مثل بكسر الميم وسكون الثاء، وهو الشبه والنظير - والمعنى ما نحن بعاجزين على أن نذهبكم ونأتي مكانكم اشباهكم من الخلق، وننشئكم فيما لا تعلمون، من الخلق والأطوار التي لا تعهدونها، ويجوز أن يكون جمع مثل - بفتح الميم والثاء، وهي الصفة والمعنى وما نحن بعاجزين على أن نغير صفاتكم التي انتم عليها خَلْقاً وخُلُقاً وننشئكم فيما لا تعلمون من قبح الصورة، وقبح الأخلاق، وذلك بأن نجعلكم قردة وخنازير والأليق بالتهديد والوعيد هذا المعنى الثاني ويجوز أن يراد في الأول ايضا و﴿على ان نبدل﴾ جار ومجرور متعلق بقوله سبحانه ﴿بمسبوقين﴾ أو حال من الضمير فيه.

وقوله تعالى ﴿ولقد علمتم النشأة الأولى فلولا تذكرون﴾ المراد بالنشأة الأولى: خلقهم من نطفة ثم من علقة، ثم من مضغة، الى آخر الأطوار التي ذكرناها آنفا أو المراد خلق أبيهم آدم من تراب وهذا ما لا يجهله أحد من ولده والتذكر: التدبر ولولا تحضيضه أي هلا تذكرون

أن من قدر على النشأة الأولى فهو أقدر وأقدر على الأخرى، فان العادة أن من صنع شيئاً ثم أعاد كان أسهل عليه فالله خاطب البشر بما يعهدون وقد قرىء تَذَكَّرون بفتح التاء والذال وتشديد الكاف، وهي القراءة السبعية وقرىء تذكرون - بالتخفيف وضم الكاف -.

قال تعالى: ﴿أفرأيتم ما تحرثون(٦٣) أأنتم تزرعونه أم نحن الزارعون(٦٤) لو نشاء لجعلناه حطاما فظلتم تفكهون(٦٥) انا لمغرمون(٦٦) بل نحن محرومون(٦٧)﴾ ثم شرع الله سبحانه وتعالى في بيان دليل آخر على انه هو الخالق، وانه هو القادر على إحياء الموتى بالبعث فقال: ﴿أفرأيتم ما تحرثون﴾ الحرث شق الأرض وقلبها والقاء البذر فيها وما قيل في ﴿أفرأيتم﴾ فيما سبق يقال هنا ﴿أأنتم تزرعونه ام نحن الزارعون﴾ ما قلناه في قوله تعالى ﴿أأنتم تخلقونه أم نحن الخالقون﴾ من الاستفهام ﴿وأم﴾ أهي متصلة أم منقطعة، ومعنى أم المنقطعة يقال هنا بمعنى أأنتم تنبتونه وتوجدونه بعد أن لم يكن أم نحن المنبتون والموجدون. ومعنى ﴿تزرعونه﴾ أي تنبتونه، وهم لم يدعوا قط انهم ينبتون الزرع ويوجدونه فتعين أن يكون المنبت هو الله تبارك وتعالى ولو ادعاه مدع فهو بمعزل وألف معزل عن التصديق. ومن أسرار البلاغة في الآية اسناد الحرث الى المخاطبين، وأسناد الزرع الى الله لأن الأول من عملهم باختيارهم لا محالة، وان كان بتوفيق الله تعالى، اما الثاني فهو من صنع الرب جل وعلا. والزرع كما يطلق على الانبات والايجاد بعد العلم يطلق ايضا على الحرث وشق الأرض ووضع البذور فيها من قبيل المجاز وهو بهذا المعنى الثاني يجوز أن يسند الى العباد فيقال فلان زرع، والمراد فعل ما يؤدي الى الزرع ومنه سمى الفلاح زارعا ومنه قوله تعالى ﴿يعجب الزارع ليغيظ بهم الكفار[١]﴾ ومن أدب

---

(١) سورة الفتح/٢٩

النبوة في هذا المعنى ما رواه ابن جرير، وابن مردويه، وأبو نعيم، والبزار، والبيهقي في شعب الايمان وضعفه - وابن حيان عن ابي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ لا يقولن أحد: زرعتُ، ولكن ليقل: حرثْتُ، قال أبو هريرة رضي الله عنه: «الم تسمعوا الله تعالى يقول أفرأيتم ما تحرثون، أأنتم تزرعونه أم نحن الزارعون يشير رضي الله عنه الى ان النبي ﷺ أخذ هذا من هذه الآية فانه اسند الحرث الى المخاطبين دون الزرع. قال القرطبي: فهو نهي ارشاد وأدب لا نهي حظر وإيجاب ومنه قوله عليه الصلاة والسلام «لا يقل أحدكم عبدي وامتي، وليقل غلامي وجاريتي وفتاي وفتاتي[1]» وقد تضمنت الآية الدلالة على أمرين: الأول - انه سبحانه هو المنبت للزرع والموجد له ومن قدر على هذا فهو القادر على غيره فهو الجدير بالتفرد بالخلق والايجاد - وهو الجدير بالتفرد بالالوهية وبأن يشكر فلا يكفر وأن يذكر فلا ينسى - وأن يطاع فلا يعصى وأما غيره فهو بمعزل عن ذلك - الثاني: ان من قدر على احياء الأرض بعد الموات، وانبات الحب بعد أن كان حبا لا حياة فيه فصار زرعا اخضرناميا يسر الناظرين ويثمر الثمر النافع المفيد لقَادِر على احياء الموتى بعد أن صاروا ترابا ورميما بل هو أقدر على احياء من أمات، واعادة من بدأ، وقد ذكر الله تبارك وتعالى هذا الدليل في قوله تعالى ﴿وآية لهم الأرض الميتة احييناها وأخرجنا منها حبا فمنه يأكلون وجعلنا فيها جنات من نخيل واعناب وفجرنا فيها من العيون ليأكلوا من ثمره وما عملته أيديهم أفلا يشكرون[2]﴾ وقوله سبحانه بعد ذكر آية البعث ﴿ وترى الأرض هامدة فإذا انزلنا عليها الماء اهتزت وربت وانبتت من كل زوج بهيج

(١) رواه البخاري ومسلم.
(٢) سورة يس/٣٣ - ٣٥.

ذلك بان الله هو الحق وانه يحيي الموتى وانه على كل شيء قدير وان الساعة آتية لا ريب فيها وأن الله يبعث من في القبور﴾[١]. قوله تعالى: ﴿لو نشاء لجعلناه حطاما فظلتم تفكهون انا لمغرمون، بل نحن محرمون﴾ لو هنا شرطية واللام واقعة في جوانبها للتأكيد. الحطام: الهشيم الهالك الذي لا ينتفع به في مطعم ولا غذاء لـو نشاء لجعلناها حطاما أي ايبسناه قبل استوائه واستحصاده ويصير هشيما لا يسر ناظر ولا يثمر ثمرا ﴿فظلتم تفكهون﴾ الأصل في التفكه التنقل بأصناف الفاكهة واستعير هناك للتنقل بالحديث من كلام الى كلام فهو مثل قولهم حديث ذو شجون أي أصناف وألوان. ومادة التفعل هنا للسلب فهو مثل تحنث وتحوب أي ترك الحنث والحوب فالتفكه معناه في الأصل سلب الفكاهة والتنعم، والمراد بها لازم ذلك وهو اما التعجب اي تتعجبون ما نزل بزرعكم أو معناها تَتَنَدَّمون أي على ما حرثتم وسقيتم وتعبتم ولا زرع ولا ثمرة. أو معناها تتلاومون أي يلوم بعضكم بعضا على ما فرطتم في جنب الله - وما جنيتم من المعاصي والذنوب ولا مانع عندي من ارادة هذا كُلِّه ممن نزل بهم ذلك فإن الأمر يبدأ بالعجب ثم يكون الندم - ثم يكون التلاوم وبعضهم يتعجب وبعضهم يتندم - وبعضهم يتلاوم ومن أراد أن يعرف دقة التصوير البياني في الآية فَلْيَنْظُر الى قوم نزلت بزرعهم جائحة فأهلكته - وسيعلم علم اليقين صدق الإعجاز البياني في الآية فمنهم من يضرب كفا على كف بل ويلطم وجهه تعجبا، ومنهم من يتندم ويتحسر ومنهم من يلوم ويلام.

وقد قرأ القراء السبع ﴿فظلتم﴾ بفتح الظاء وسكون اللام، وأصله ظللتم - بفتح اللام الأولى - حذفت اللام الأولى تخفيفا. وقرأ

(١) سورة الحج/٥ - ٧.

عبد الله به كثير ﴿فظلتم﴾ بكسر الظاء وسكون اللام وأصله ظللتم بكسر اللام الأولى فنقلت كسر اللام الى الظاء ثم حذفت اللام فصار - فظِلتم. ﴿انا لمغرمون﴾ هو مقول لقول محذوف حال من الفاعل في ﴿تتفكهون﴾ أي حالة كونهم يقولون أو قائلين ﴿انا لمغرمون﴾ أي المعذبون مهلكون بهلاك زرعنا الذي هو مصدر رزقنا والغرام بمعنى العذاب والهلاك قال الشاعر الأعشى:

ان يُعَــذِّب يكن غَرامــاً وإن يُعْــط جزيــلا فــإنــه لا يبــالي

وقد فسر البخاري الغرام في سورة الفرقان بالهلاك. ثم بعد ذلك كله ينتهون الى الحقيقة التي لا تحتمل الجدال ﴿بل نحن محرومون﴾ بل للاضراب وهو هنا انتقالي أي لَمَحْرُومُون من ثمرة زرعنا وما كنا نترقبه منه من رزقنا.

قال تعالى: ﴿أفرأيتم الماء الذي تشربون(٦٨) أأنتم أنزلتموه من المزن أم نحن المنزلون(٦٩) لو نشاء جعلناه أجاجا فلولا تشكرون(٧٠)﴾. هذا دليل ثالث على أنه سبحانه هو المتفرد بالخلق والايجاد والتكوين، والاعدام ومن كان هذا شأنه فهو الحقيق بالوحدانية والجدير بالعبادة والشكر على نعمائه، وانه القادر على البعث فان من قدر على تحويل الماء الى بخار وتكوين السحب من هذا البخار وتجميعها وانزال الماء منها لقادر على أن يحيي الموتى بعد الفناء. وما قلناه في ﴿أفرأيتم﴾ وفي ﴿أأنتم تخلقونه﴾ وفي ﴿أم﴾ يقال هنا وانما وصف الماء بالذي تشربون مع أنه له منافع أخرى لأنه أعظم منافعه لأن على الشرب تتوقف حياة الانسان والحيوان فاقتصر على أعظم منافعه وانما أخر هذه الآيات عما قبلها لأنه هذا هو الترتيب الطبيعي فالانسان يأكل ثم يشرب لذلك قدم ما يتعلق بالمطعومات على ما يتعلق بالشراب. ﴿أأنتم انزلتموه من المزن أم نحن المنزلون﴾ المزن جمع مزنه وهو السحاب وقيل السحاب

الابيض قال الشاعر العربي:

فلا مزنة ودقت ودقها ولا أرض أبقل ابقالها

وأصل الماء من السحب وعلى هذا جاءت الحقيقة العلمية الكونية، والقرآن تارة يذكر نزول الماء من السحاب وذلك على الأصل وتارة يذكر نزول الماء من السماء ويراد بهذا السحاب لأن العرب كانوا يطلقون السماء على كل ما علا فليس بين التعبيرين تخالف ولا تضاد في الواقع ونفس الأمر وانما هو التغاير في النظر فحسب وماء الأمطار ينزل فيكون الأنهار والبحيرات على ظاهر الأرض ويتسرب الكثير منه الى باطن الأرض فتتكون منه مياه العيون والآبار ولم يدع المخاطبون انهم المنزلون للماء من السحب فتعين أن يكون المنزل هو الله وهي من أجل نعم الله على الانسان ﴿لو نشاء جعلناه أجاجا﴾ اي ملحا شديد الملوحة مأخوذ من الأجيج وهو اضطرام النار لا يصلح للشراب، ولا للزرع ولا غيرهما وقيل لاذعا غير مستساغ ولا مقبول فيشمل الملح الأجاج والمر الزعاق الشديد المرارة والأول أولى لأن الاسلوب القرآني كثيرا ما يذكر العذب الفرات بجانب الملح الاجاج قال عز شأنه ﴿وهو الذي مرج البحرين هذا عذب فرات سائغ شرابه، وهذا ملح أجاج﴾ ﴿فلولا تشكرون﴾ لولا بمعنى هلا التحضيضية ولا تصلح أن تكون شرطية أي هلا تشكرون الله على هذه النعمة الجليلة بانزاله عذبا فراتا فتشربون منه وتشرب دوابكم وانعامكم، وتسقون به زراعاتكم وبساتينكم والشكر لله بأن يفرد بالألوهية ويفرد بالعبادة وأن يصدق في كل ما يقول في البعث واحياء الموتى بعد النشور.

وأحسن ما يقال في أن الاسلوب القرآني جاء في آية المطعوم باللام لجعلناه حطاما دون آية المشروب ﴿جعلناه اجاجا﴾ هو ما قاله ابن الأثير في المثل السائر حيث قال «وإنما جاءت كذلك لأن جعل الماء

العذب ملحا أسهل امكانا في العرف والعادة »، والموجود من الماء الملح أكثر من الماء العذب[١].

وكثيرا ما اذا جرت المياه العذبة على الأراضي المتغيرة التربة أحالتها الى الملوحة فلم يحتج في جعل الماء العذب ملحا الى زيادة تأكيد فلذلك لم تدخل عليه لام التأكيد المفيدة زيادة التحقيق، وأما المطعوم فان جعله حطاما من الأشياء الخارجة عن المعتاد واذا وقع فلا يكون غالبا الا عن سخط من الله شديد فلذلك قرن بلام التوكيد زيادة في تحقيق أمره وتقرير ايجاده »..قال تعالى: ﴿أفرأيتم النار التي تورون(٧١) أأنتم أنشأتم شجرتها ام نحن المنشئون (٧٢) نحن جعلناها تذكرة ومتاعا للمقوين(٧٣) ،فسبح باسم ربك العظيم(٧٤)﴾ ماقلناه في ﴿أفرأيتم﴾ وفي﴿أأنتم﴾ وفي ﴿أم﴾ وفي الآية الأولى يقال هنا ﴿التي تورون﴾ اي تقدحونها وتستخرجونها من الزناد يقال في اللغة ورى الزندُ يَرى اذا انقدح منه النار ويقال اوريت النار اي قدحتها فهو من الثاني لا من الأول[٢]﴿أأنتم أنشأتم شجرتها أم نحن المنشئون﴾ المراد بالانشاء الايجاد والخلق والمراد بالشجرة هي التي تكون منها الزناد وهما المرخ والعفار شجرتان من شجر البادية وعلى هذا يكون المراد بالشجرة الجنس لا الوحدة ومن عجيب شأن هاتين الشجرتين الخضراوين الرطبتين أنهما اذا قدحت قطعة من احداهما بالأخرى أورت نارا وهذا من اعجب العجب حقا ان تتكون النار من الرطب وهاتان الشجرتان هما المرادتان من قوله تعالى ﴿الذي جعل لكم من الشجر الأخضر نارا فاذا انتم منه توقدون﴾

---

(١) مياه الانهار والعيون والآبار هي شيء قليل جدا بالنسبة لمياه المحيطات والبحار التي تبلغ ثلاثة أرباع مساحة الكرة الأرضية.

(٢) في مختار الصحاح ص٧١٨: (ورَى الزندُ، يَرى، وَرْياً، خرجت نارُه وأوْراَه غَيْرُه)

فالمراد به المرخ والعفار تقول العرب في كل شجر نار واستمجد المرخ والعفار اي استكثر منها كأنها اخذا من النار ما هو حسبهما. والمخاطبون لم يدعوا انهم المنشئون لشجرتها، ولو ادعوا لكذبهم الواقع والعيان فتعين ان يكون المنشيء والموجد هو الله تبارك وتعالى وعلى هذا يكون المعنى ﴿نحن المنشئون﴾ اي المخترعون الخالقون لها فاذا كان الله تبارك هو القادر على ايجاد النار من الرطب او ان شئت فقل من الشجر المشتمل على الماء مهما قل والماء والنار ضدان فهو قادر على البعث واحياء الموتى بعد ان صاروا رميما وترابا وليس ايجاد الحياة في التراب بأصعب ولا بأبعد من ايجاد النار من الشجر المشتمل على الماء ﴿نحن جعلناها تذكرة ومتاعا للمُقْوِين﴾ استئناف مبين لمنافع النار أخرى ودنيا: أما في الآخرة فبالتذكرة وأما في الدنيا فبالتمتع بها والانتفاع وقدم ما يتعلق بالآخرة على ما يتعلق بالدنيا من قبيل تقديم الأهم على المهم، أما كون النار تذكرة فهي تذكر بنار الآخرة وان كانت نار الآخرة تفوقها اضعاف مضاعفة أو هي نموذج مصغر منها وفي الصحيحين وغيرهما عن أبي هريرة عن النبي ﷺ «ناركم هذه التي توقدون جزء من سبعين جزءاً من نار جهنم» وعلى كلا المعينين فهي من الذكر المقابل للنسيان فهي دائمة التذكير بها، وفي التذكير بالنار حمل على الطاعات ومجانبة المعاصي ويجوز ان يكون معنى التذكرة اي عظة وعبرة ثم ذكر منافعها في الدنيا بقوله سبحانه وتعالى ﴿ومتاعا للمُقوين﴾ اي منفعة لهم. وقد اختلف والسلف في معنى المقوين على اقوال عدة فعن ابن عباس «شربا، وغسلا، وطبخا، وعجنا، واستدفاء» وقال الحسن البصري التابعي والضحاك وغيرهما ﴿للمقوين﴾ اي المسافرين سموا بذلك لنزولهم القوى وهو القفر والقِيّ - بكسر القاف وتشديد الياء - والقَوَى - بفتح القاف والقصر - والقَوَاء - بفتح القاف

والمد ـ هي الأرض القفر التي لا شيء فيها «ويقال منزل قَوَاء» يعني لا أنيس به. ويقال أَقْوَتْ الدار وقِوِيَت ايضا اذا خلت من سكانها قال النابغة الذبياني:

يا دار مية بالعلياء فالسند أقوت فطال عليها سالف الأمــد

وقال عنتره

حييت من طلل تقاوم عهده اقوى واقفر بعــد أم الهيـثم

وانما خص المسافرون وإن كان النار ينتفع بها المسافر وغير المسافر لأن حاجة المسافر اليها اشد من المقيم ولا سيا في ليالي الصحراء الباردة والممطرة في الاستدفاء واعداد الطعام والاستنارة ونحوها وقال آخرون المراد بالمقوين المستمتعون مطلقا سواء أكانوا مسافرين ام غير مسافرين، وسواء أكانوا فقراء ام اغنياء وقد قيل ان اقوى يأتي بمعنى افتقر وبمعنى اغتنى والأولى ان يقال على هذا الوجه ﴿بالمقوين﴾ اي المحتاجين مطلقا وقد جاءت هذه الآيات من قوله ﴿أفرأيتم ما تمنون﴾ الى هنا على هذا النسق البديع فقد قدم أولا ما يتعلق بخلق الإنسان الذي هو اشرف المخلوقات، وأصلحها لعمارة الأرض ثم ذكر بعد ذلك ما به قوام الإنسان ومعاشه ورزقه ورزق دوابه وحيواناته وهو المذكور في قوله ﴿أفرأيتم ما تحرثون﴾ ثم ذكر بعد ذلك ما به يكون اعداد الطعام وما لا يستغني عنه الانسان في خبز، وطبخ، وغيرهما. وبعد هذه الدلائل المترادفة، والآيات المتتالية، والنعم المتكاثرة لم يكن بد من ان ننزه الله عن كل نقص، ونصفه بكل كمال فقال ﴿فسبح باسم ربك العظيم﴾ فكانت مسك الختام، بمثابة النتيجة بعد المقدمات والباء للاستعانة اي سبح مستعينا باسم ربك العظيم، او للملابسة اي متلبسا باسم ربك العظيم ذلك والله تبارك وتعالى كما يستعان بذاته يستعان

بصفاته، وكما يتبرك بذاته يتبرك باسمائه ويجوز ان تكون الباء زائدة لتأكيد المعنى: أي نزه اسم ربك العظيم فان الله تبارك وتعالى كما يجب تنزيه ذاته تعالى وصفاته من النقائص وصفات الحوادث يجب تنزيه أسمائه فلا يوصف بها غيره سبحانه ولا يطلق على غير الله لفظ الله ولا لفظ الرازق وصدق الله تبارك وتعالى حيث يقول ﴿ولله الأسماء الحسنى فادعوه بها وذروا الذين يلحدون في أسمائه سيجزون ما كانوا يعملون﴾[١].

- قال الله تعالى -

﴿فلاَ أُقْسِم بِمَواقع النُّجُوم(٧٥) وإنه لَقَسَمٌ لَوْ تَعْلَمون عظيم(٧٦) إنه لقرآنٌ كريمٌ(٧٧) في كتابٍ مكْنُونٍ(٧٨) لا يَمَسَّه إلا المُطَهَّرُون(٧٩) تنزيل من رب العالمين(٨٠) أَفَبِهَذَا الَحَدِيثِ أنتُم مُدْهِنُونَ(٨١) وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكم أنكم تُكَذِّبُونَ(٨٢)﴾ .

(١) سورة الأعراف/١٨٠

الشرح والبيان

﴿فلا اقسم بمواقع النجوم﴾ اختلف انظار المفسرين في قوله تعالى ﴿فلا اقسم﴾... وذلك لأن ظاهره نَفيُ القسم مع ان المراد القسم، على آراء:

«الأول»: ما ذهب اليه ابو مسلم الخراساني وجماعة من ان الكلام على ظاهره المتبادر منه والمعنى لا اقسم إذ الأمر أوضح من ان يحتاج الى قسم اي لا يحتاج الى قسم مَّا فضلا عن هذا القسم العظيم فهو في الظاهر نفي للقسم وفي الحقيقة، والمآل قسم او ان شئت فقل مكانه اراد أنه لا اقسم بمواقع النجوم قاصدا تعظيم المقسم به وذلك لأن كونه عظيما اظهر من ان يخفي وليس ادل على ان المراد القسم لا نفيه من قوله الله تبارك وتعالى بعد ﴿وانه لقسم لو تعلمون عظيم﴾ وبذلك لا يكون هناك تنافر بين ما اراده هؤلاء القائلون، وما ذكره الله بعد كما قال به بعض المفسرين.

«الثاني»: ما قاله سعيد بن جبير، وبعض العلماء النحاة وهو أَنَّ قوله سبحانه ﴿فلا﴾ ليس نفيا للقسم وانما النفي محذوف مفهوم من القرآن في غير هذا المقام تقدير الكلام فلا يكون الأمر كما زعمتم في القرآن من انه سحر أو شعر أو كهانة، او تنزلت به الشياطين من عند الله، ثم استأنف كلاما آخر فقال: اقسم بمواقع النجوم.

وقد ناقش هذا القول ابو حيان في البحر المحيط بان فيه حذف كان واسمها وخبرها في غير استفهام وذلك مثل ان تقول لآخر: هل من عالم في البلدة؟ فتقول لا. وأيضا فالأولى في مثل هذا ان يؤتى بالواو بعد لا وذلك نحو قولهم لا، وأطال الله بقاءك.

« الثالث »: ان لا مزيدة للتأكيد وذلك مثل زيادتها في قوله تعالى ﴿يا ايها الذين آمنوا اتقوا الله وآمنوا برسوله يؤتكم كفلين من رحمته ويجعل لكم نورا تمشون به ويغفر لكم والله غفور رحيم لئلا يعلم أهل الكتاب أن لا يقدرون على شيء من فضل ،وأن الفضل بيد الله[1]﴾الآية.

فان المقام مقام ﴿ليعلم﴾ فاللام زائدة ولا يراد بها النفي وانما يراد بها توكيد الكلام، وفي الحق ان لولا وجود لا هنا لما وقفنا عند الآية هذا الوقوف، ولما دققنا هذا التدقيق وهناك اقوال اخرى اعرضت عنها لأنها ليست ذات بال.

﴿ومواقع النجوم﴾ قال بعض المفسرين: المراد مساقطها ومغاربها، وذلك على ان الوقوع بمعنى السقوط والغروب، والمواقع على هذا جمع موقع اسم مكان او مصدر ميمي وتخصيصها بالقسم على هذا لما في زوالها من زوال اثرها ولما فيها من الدلالة على الحدوث وهو يدل على وجود محدث مؤثر دائم لا يتغير، ولذلك استدل الخليل ابراهيم عليه الصلاة والسلام على اقامة الحجة على قومه بأفولها قال تعالى: ﴿فلما جن عليه الليل رأى كوكبا قال: هذا ربي فلما أفل قال لا أحب الآفلين، فلما رأى القمر بازغا قال: هذا ربي فلما أفل قال لئن لم يهدني ربي لأكونن من القوم الضالين فلما رأى الشمس بازغة قال هذا ربي هذا اكبر فلما افلت قال يا قوم اني بريء مما تشركون[2]﴾. وقال قتادة المفسر التابعي الجليل وآخرون: المراد منازلها ومجاريها اي مداراتها وافلاكها التي تسبح فيها ذلك على ان المراد بالوقوع النزول ومنه قول
على الخير سقطت اي نزلت.

المواقع على هذا جمع موقع اسم مكان وقول قتادة هذا رواه عنه عبد الرزاق، وابن جرير في تفسيره ولعل هذا هو الأوفق بتفسير الآية

---

(١) سورة الحديد/٢٨، ٢٩. (٢) سورة الأنعام/٧٦ - ٧٨.

وذلك لما فيه من الدلالة على وجود موجود مريد مختار قادر عظيم القدرة، حكيم كامل الحكمة، عليم واسع العلم. خبير لا تخفى عليه خافية في الأرض ولا في السماء وذلك لأن هذه النجوم والكواكب من الكثرة الفائقة التي تبلغ الوف الألوف بل أُلوفَ ألوفِ الألوف[١] ما لا يحصر ولا يعد ومع هذا فالكل في فلكه يسبح ويجري بسرعة فائقة ومع هذا لا يخرج نجم من مداره، ولا يصطدم بآخر، ولو ان اي نجم منها خرج عن مداره قِيدَ شعره لاصطكت الأجرام وفسد العالم وهذا من أقوى الأدلة على وجود الله ووحدانيته وصدق الله ﴿لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا فسبحان الله رب العرش عما يصفون﴾ واليكم ما قاله احد الباحثين قال: «ويقول الفلكيون: ان من هذه النجوم والكواكب التي تزيد على عدة ملايين نجم ما يمكن رؤيته بالعين المجردة، وما لا يرى الا بالمجاهر والأجهزة، وما يمكن ان تحس به الأجهزة دون ان تراه، هذه كلها تسبح في الفلك الغامض ولا يوجد اي احتمال أن يقترب مجال مغناطيسي لنجم من مجال نجم آخر، أو يصطدم بكوكب آخر الا كما يحتمل تصادم مركب في البحرالابيض المتوسط بآخر في المحيط الهادى يسيران في اتجاه واحد وبسرعة واحدة وهو احتمال بعيد وبعيد جدا ان لم يكن مستحيلا[٢]».

وقال ابن عباس وجماعة المراد بالنجوم نجوم القرآن أي آياته واجزائه التي نزلت ومواقعها: أوقات نزولها وعلى هذا يكون لفظ المواقع جمع موقع وهو اسم زمان ويؤيد هذا ما رواه النسائي وابن جرير والحاكم وصححه البيهقي في «شعب الإيمان» عن ابن عباس انه قال: «انزل القرآن في ليلة القدر من السماء العليا الى سماء الدنيا جملة واحدة

---

(١) ألوف الألوف يعني ما يسمى مليون، وألوف ألوف الألوف يعني ما يسمى بالبليون.

(٢) الله والعلم الحديث ص٣٣.

ثم فرق في السنين » وفي بعض الروايات: « ثم نزل من السماء الدنيا الى الأرض نجوما ثم قرأ ﴿فلا اقسم بمواقع النجوم﴾.

والجمهور من القراء قرأوا ﴿بمواقع﴾ بصيغة الجمع وقرأ حمزة والكسائي « موقع » مفردا مرادا به الجمع، يعني أنه اسم جنس فتَتَوافَقُ القراءتان السبعيتان. فقد اقسم بنزول القرآن منجما على انه قرآن كريم.

والمناسبة بين القسم والمقسم عليه على هذا ظاهره. وأما على الوجهين الأولين فتحتاج الى تأمل وتفكير: ذلك ان النظام العلوي ولا سيما النجوم والكواكب في منازلها ومداراتها خلقها الله على حالة عالية من الإحكام والإتقان فكذلك القرآن الذي هو كلام الله جاء على غاية من الإحكام والإتقان في الألفاظ والمعاني وايضا فالنجوم في منازل عالية جدا لا يتطاول اليها متطاول ولا يبلغها بالغ وكذلك القرآن - في منزلة من الاعجاز سامقة لا يصل اليها واصل ولا يعارضها معارض. وايضا فالنجوم يهتدي بها في ظلمات البر والبحر وكذلك القرآن هو هداية الخالق للخلق وشريعة السماء لأهل الأرض لكن هدايته دونها كل هداية، وشريعته دونها كل تشريع قوله تعالى ﴿وانه لقَسَمٌ لو تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ﴾.

هذا اعتراض بين المقسم به والمقسم عليه وهو اعتراض داخله اعتراض آخر وبيانه ان قوله لو تعلمون اعتراض بين الموصوف وهو قوله ﴿قسم﴾ والصفة وهو قوله عظيم وهو توكيد لذلك التعظيم وقوله ﴿وانه لقسم لو تعلمون عظيم﴾ اعتراض بين القسم والمقسم عليه، وفائدته تأكيد القسم وبيان انه قسم عظيم وايضا فهذه الجملة هي التي صرفت « لا » عن معنى النفي لأنه لو اريد بها نفي القسم لتناقض مع قوله تعالى ﴿وانه لقسم - لو تعلمون - عظيم﴾ لأن كلام الله تعالى لا يناقض بعضه بعضا، وإنما ذلك كلام البشر وصدق الله ﴿ولو كان من

عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيرا﴾ وقوله ﴿لو تعلمون﴾ يعني لو كنتم من أهل العلم فأنزل تعلمون المتعدى منزلة القاصر. لهذه النكتة وعلى هذا فلو وصلية وأما على أنها شرطية فجوابها محذوف اعتمادا على ظهوره اي لو كنتم من اهل العلم لعظمتموه ولعملتم بموجبه.

﴿انه لقرآن كريم﴾ الضمير في ﴿انه﴾ يعود على القرآن لدلالة المقام عليه والقرآن في الأصل مصدر على وزن فعلان كغفران، او وصف على فعلان ثم صار علما شرعيا على الكلام المنزل على نبينا محمد ﷺ المعجز بلفظه المتعبد بتلاوته المنقول بالتواتر المفيد للقطع واليقين، المكتوب في المصاحف من اول سورة الفاتحة الى آخر سورة الناس.

وقال الإمام الجليل الشافعي: انه علم مرتجل غير منقول، وضع من اول الأمر على الكلام المنزل على النبي ﷺ... كالتوراة والانجيل، فهما علمان على الكتاب الذي أنزله الله على موسى عليه الصلاة والسلام، والكتاب الذي أنزله الله على عيسى عليه الصلاة والسلام[١].

وقد وصف القرآن بثلاثة أوصاف:

الوصف الأول: قوله تعالى: ﴿كريم﴾ والكرم - في لسان العرب - يطلق على الشيء - اما باعتبار نسبته وأصله، وإما باعتبار ذاته، وإما باعتبار نفعه. وقد اجتمع للقرآن هذه الثلاثة فهو كريم في نسبته الى الله وأنه كلامه القديم، وليس من كلام بشر، وباعتبار ذاته لأن القرآن أصل العلوم والمعارف سواء اكانت دينية أم دنيوية أم أخروية. وباعتبار نفعه واثاره في اصلاح العباد والبلاد، فهو الكتاب الذي صلحت بنزوله والعمل به الأمة الاسلامية التي صار لها قيادة العالم احقابا من السنين وهو الكتاب الذي انتفع به وبهدايته المسلمون وغير

---

(١) انظر تحقيق الحق في هذا المقام كتاب «المدخل لدراسة القرآن الكريم» للمؤلف. ص١٧ - ١٩.

المسلمين، اما المسلمون، فانتفعوا بهدايته في دينهم ودنياهم واما غير المسلمين فلأنهم انتفعوا به في دنياهم ولولا القرآن لبقيت الدنيا كلها على جهالتها الجهلاء وضلالتها العمياء، ولبقيت العقول والقلوب مقيدة بالأغلال والأصفاد، ولما توصل العقل البشري الى ما وصل اليه المسلمون وغيرهم من علوم ومعارف وكشوف ومخترعات فالعالم كله مدين لهداية هذا الكتاب الكريم.

الوصف الثاني: قوله تعالى: ﴿في كتاب مكنون﴾ اي مصون عن غير المقربين من الملائكة الكرام عليهم السلام ولا سيا امين الوحي جبريل، والمراد به على هذا اللوح المحفوظ.

وقيل المراد: في كتاب مصون عن التحريف والتبديل والتغيير وهي المصاحف الذي هو بأيدي المسلمين، ولم تكن المصاحف قد كتبت عند نزول هذه الآية، وعلى هذا فتكون الآية أشارت الى ما سيكون بعد، ومن هذا يكون معجزة من معجزات القرآن، وما أكثرها، وما أعظمها. وعلى هذا فتكون الآية في معنى قوله تعالى ﴿انا نحن نزلنا الذكر، وانا له لحافظون[1]﴾.

الوصف الثالث: قوله سبحانه وتعالى ﴿لا يمسه إلا المطهرون﴾ وهذا الوصف، إما وصفٌ ثان للكتاب وإما وصف ثالث للقرآن. اما على الأول: فان كان المراد بالكتاب اللوح المحفوظ كان المراد بالمطهرين الملائكة عليهم الصلاة والسلام اي المنزهون عن كدر الطبيعة الجسدية ودنس الحظوظ النفسية والمعاصي والآثام والأنجاس الحسية والمعنوية، قال الله تعالى في وصف الملائكة ﴿بل هم عباد مكرمون لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون﴾ والطهارة على هذا تكون شاملة للحسية

(١) سورة الحجر/٩.

والمعنوية، ويكون المراد بنفي المس لازمة وهو نفي الاطلاع عليه وعلى ما فيه وعلى هذا فلا يكون في الآية دليل لمن قال يحرم على المحدث والجنب مس القرآن، ولا يجوز للجنب قراءته، اللهم الا أن نقول: اذا كان لا يمسه الا المطهرون من الملائكة فمن باب الأولى أن لا يمسه أصحاب الأحداث من البشر سواء أكان الحدث أكبر وأصغر، والقول بأن المراد بالمطهرون الملائكة. مروى عن ابن عباس من عدة طرق وكذا أخرجه جماعة عن أنس، وقتادة، وسعيد بن جبير، ومجاهد والى هذا ذهب الإمام الجليل مالك وهو اختياره حين قال: أحسن ما سمعت في قوله ﴿لا يمسه الا المطهرون﴾ انها بمنزلة الآية التي في عبس وتولى ﴿فمن شاء ذكره، في صحف مكرمة، مرفوعة مطهرة بأيدي سفرة، كرام بررة﴾ والذي يظهر لي أن المراد بآية عبس، الصحف التي كتب فيها القرآن بعد نزوله من اللوح المحفوظ الى سماء الدنيا.

وان كان وصفا ثالثا للقرآن يكون المراد به أن لا يمسه الا المطهرون من الحدث الأكبر، والأصغر ويكون المراد بالطهارة على هذا، الطهارة الشرعية من الحدثين ويكون المراد بالقرآن المصحف. ولا: هي النافية لا الناهية، والمعنى لا ينبغي أن يمس القرآن الا من هو على طهارة من الناس، فالنفي هنا نظيره في قوله تعالى: ﴿الزاني لا ينكح الا زانية أو مشركة، والزانية لا ينكحها الا زان أو مشرك وحرم ذلك على المؤمنين﴾ وقوله ﷺ «المسلم أخو المسلم لا يظلمه، ولا يسلمه ولا يخذله...» الحديث رواه الشيخان، والنفي في الآيتين بمعنى النهي، والنفي في مثل هذا أبلغ من النهي الصريح كأن المنهى امتثل ما نهى عنه، فتركه فأخبر عنه على أنه غير واقع، وأيضا فالمتبادر من النظم الكريم أن الجملة صفة والأصل في جملة الصفة ان تكون خبريه لا انشائية، فهي خبرية لفظا انشائية معنى.

وقد ذكر الإمام الجلال السيوطي في «الأحكام» ان الشافعي استدل بالآية على منع المحدث مطلقا من مس المصحف وهو ظاهر في ذلك، ولولا احتمال ان يكون الوصف للكتاب لا للقرآن لكانت الآية نصا في ذلك. ومن ثم عدل الأكثرون من العلماء عن الاستدلال بالآية على عدم جواز مس المحدث للمصحف الى ما روي من الأحاديث في ذلك.

فقد أخرج الإمام مالك، وعبد الرزاق، وابن أبي داود، وابن المنذر عن عبد الله بن أبي بكر بن محمد بن عمرو بن حزم عن أبيه انه قال: في كتاب النبي ﷺ لعمرو بن حزم «لا تَمَس القرآن الا على طهور».

وأخرج الطبراني وابن مردويه عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ «لا يمس القرآن الا طاهر».

وذكر ابو داود في كتاب «المراسيل» عن ابن شهاب الزهري انه قال: «قرأت في صحيفة عبد الله بن ابي بكر بن محمد بن عمرو بن حزم أن رسول الله ﷺ قال «ولا يمس القرآن الا طاهر» وهي وجادة جيدة قد أقرها العلماء وأخذوا بها.

والمراد بالقرآن في الحديث المصحف، وقد جاء هذا الاستعمال في الحديث الصحيح الذي رواه مسلم عن ابن عمر «ان رسول الله ﷺ نهى أن يسافر بالقرآن الى أرض العدو مخافة أن يناله» فالمراد بالقرآن المصحف، ويكون قول النبي ﷺ هذا من قبيل الإخبار بالمغيبات، فقد كتب القرآن في المصحف في عهد أبي بكر رضي الله عنه، وفي المصاحف في عهد عثمان رضي الله عنه، أما في عهده ﷺ فقد كان

مكتوبا مفرقا في العسب والأكتاف واللِّخَاف والرقاع[1] ونحوها. واستدلوا ايضا بقول السيِّدة فاطمة بنت الخطاب لأخيها عمر قبل اسلامه وقد طلب منها الصحيفة التي كان يقرئها منها وزوجها خَبَّابْ بن الأَرَتِّ فقد قالت له «لا يمسه الا المطهرون» فقام واغتسل فناولته الصحيفة فقرأ فيها فما كان منه الا أن ذهب الى النبي ﷺ وأعلن اسلامه، ذكر ذلك في كتب السير وغيرها.

أما الذين جوزوا مس المصحف للمحدث حدثا أصغر فقد حملوا الآية على أن المراد بالمطهرين الملائكة، واستدلوا ايضا بكتاب رسول الله ﷺ الى قيصر فقد كان فيه «قل يا أهل الكتاب تعالوا الى كلمة سواء بيننا وبينكم الا نعبد ألا الله ولا نشرك به شيئاً ولا يتخذ بعضنا بعضا أربابا من دون الله، فإن تولوا فقولوا اشهدو بأنا مسلمون» وهرقل واعوانه لا يتنزهون عن الأحداث والأنجاس.

---

(١) العُسُب - بضم العين والسين - جمع عَسِيب وهو طرف الجريدة العريض، والأكتاف جمع كَتِف وهي العظام واللخاف: جمع لخفة - بفتح اللام - حجارة بيض رقاق، والرِّقاع جمع رقعة تكون من ورق أو جلد، أو قماش.

مذاهب السلف والأئمة في حكم مس المصحف على غير وضوء

قال الإمام القرطبي في تفسيره (جـ١٧ ص٢٢٦) واختلف العلماء في مس المصحف على غير وضوء:

فالجمهور على المنع من مسه لحديث عمرو بن حزم، وهو مذهب علي وابن مسعود وسعد بن ابي وقاص، وسعيد بن زيد، وعطاء والزهري والنخعي، والحكم، وحماد وجماعة من الفقهاء، منهم مالك والشافعي.

واختلفت الرواية عن ابي حنيفة، فروى عنه انه يمسه المحدث - يعني حدثا أصغر وقد روى هذا عن جماعة من السلف منهم: ابن عباس، والشعبي وغيرهما وروى عنه أنه يمس ظاهره وحواشيه، وأما الكتاب فلا يمسه الا طاهر ثم قال: وقال مالك: لا يحمله غير طاهر بعلاقة ولا على وسادة. وقال ابو حنيفة ولا بأس بذلك».

أقول: والمعروف في مذهب الحنيفية انه لا يجوز للمحدث حدثا أصغر أن يمس المصحف الا بحائل غير متصل به كجلدته مثلا، وعلى هذا فمن أراد أن يقرأ القرآن وهو محدث من غير أن يمسه فليدفعه على كرسي مثلا أو فوق حائل آخر ويقرأ. ثم قال القرطبي «وقد روى عن الحكم، وحماد وداود بن علي - يعني امام الظاهرية: لا بأس بحمله ومسه للمسلم والكافر طاهرا أو محدثا الا ان داود قال: لا يجوز للمشرك حمله، واحتجوا في اباحة ذلك بكتاب النبي ﷺ الى قيصر، وهو موضع ضرورة فلا حجة فيه، وفي مس الصبيان اياه على وجهين: احداهما: المنع اعتبارا بالبالغ، والثاني: الجواز لأنه لو منع لم يحفظ

القرآن لأن تعلمه لأجل ضرورة حفظه، وأما الجنب والحائض والنفساء فقد اجمع الفقهاء على حرمة قراءتهم للقرآن أو آية منه وعلى حرمة مسهم له وذلك لما ورد في هذه الآية ولا سيما عند من حمل المطهرين على الطهارة الشرعية، ولما ورد في حديث عمروبن حزم. وأما كتب العلم ونحوها فلا يحرم على الجنب ولا على المحدث مسها وان كانت كتب تفسير فليترك قراءة الآيات. وقد قرىء في السبع ﴿الا المُطَّهَّرُون﴾ بضم الميم وتشديد الطاء والهاء مع فتحها وأصله المتطهرون أدغمت التاء في الطاء فصارت المطهرون اسم مفعول من تطهر، وقرىء ﴿المُطْهَرُون﴾ اسم مفعول من أطهر فهو مطهر، ورويت عن نافع وأبي عمرو وقرىء «المُطَهِّرُون» بتخفيف الطاء وتشديد الهاء وكسرها اسم فاعل من طهر أي المطهرون أنفسهم أو غيرهم بالاستغفار والالهام.

ورواية حفص عن عاصم «الا المُطَهَّرون» اسم مفعول من: طَهَّر.

قال تعالى: ﴿تنزيل من رب العالمين(٨١)﴾ وصف رابع اي منزل من رب العالمين وقد بولغ فيه فجعل كأنه نفس التنزيل وفيه رد على المتقولين على القرآن بانه سحر وكهانة. أو تنزلت به الشياطين. قال عز شأنه ﴿وما تنزلت به الشياطين وما ينبغي لهم وما يستطيعون﴾ والآية في غاية الاحكام في الحجاج ﴿وما تنزلت به الشياطين﴾ لأنها بمعزل عن الوصول اليه «وما ينبغي لهم» لأنه لا يمسه الا المطهرون والشياطين ليسوا كذلك لا حسا ولا معنى، ثم انهم لو راموا ذلك ما استطاعوا، وهو معنى «وما يستطيعون» وذلك لأنهم عن استماع ما في اللوح المحفوظ أو استماع ما في صحف الملائكة الكرام البررة في السماء الدنيا معزولون وممنوعون اشد المنع ومن حاول منهم سلطنا عليهم الشهب فتهلكه وتصيره رمادا والمراد بيان انه لا يمكن الا ان يكون منزلا من عند الله وقد غلب وصف القرآن بالتنزيل في كثير من آيات القرآن

حتى صار علما بالغلبة على القرآن الكريم. فقيل جاء في التنزيل كذا ونطق به التنزيل مثلا.

﴿أفبهذا الحديث انتم مدهنون﴾

المراد بالحديث القرآن لأنه كان حديث العرب في وقت نزوله كأنه لا حديث لهم غيره ولا يزال هكذا الى يوم يقوم الناس لرب العالمين. فهوَ الذي يكثر العلماء في كل عصر ومصر من التحدث عنه مها تعاقبته الأجيال والعصور. ومعنى مدهنون: أي متهاونون به كمن يدهن في الأمر أي يلين جانبه ولا يتصلب فيه تهاونا له. واليك الأطوار اللغوية التي مرت بها الكلمة حتى صار المراد بها التهاون، وأصل الادهان جعل الأديم ونحوه مدهونا بشيء من الدهن، ولما كان ذلك ملينا لينا محسوسا أريد به اللين المعنوي على انه تجوز به عن مطلق اللين من قبيل اطلاق المقيد وارادة المطلق أو استعير اللين الحسي للمعنوي ثم اشتهر في هذا المعنى حتى صار حقيقة عرفية وتنوسى المعنى المجازي ولذلك تجوز به هنا على التهاون ايضا لأن المُتَهَاون بالأمر لَيِّنٌ فيه وغير مُتَصَلِّب ومن هذا المعنى قول الله تبارك وتعالى: ﴿ودُّوا لو تدهن فيدهنون﴾ أي تلين فيلينون أو تتهاون في دعوتك فيتهاونون في معارضتك والتعويق عن رسالتك، والمعنى افبهذا الحديث وهو القرآن الذي ذكرت نعوته وأوصافه المتعددة والموجبة لاعظامه واجلاله والايمان بما تضمنه وأرشد اليه انتم لينون ومتهاونون.

وروى عن ابن عباس والزجاج تفسير ﴿مدهنون﴾ اي مكذبون وذلك لأن في التكذيب تهاونا به وعدم اعطائه حقه من التصديق به والايمان بما فيه.

وروى عن مجاهد في معنى ﴿مدهنون﴾ أي منافقون في التصديق

تقولون للمؤمنين آمنا به واذا خلوتم الى شياطينكم واخوانكم قلتم إنا معكم وعلى هذا يكون المخاطبون المنافقين ولا مانع من ذلك فقد روي ان هذه الآيات من قوله ﴿فلا اقسم بمواقع النجوم... الى قوله وتجعلون رزقكم انكم تكذبون﴾ نزلت في غزوة الحديبية في صحيح مسلم وقد ذكرته في أول شرح السورة.

﴿وتجعلون رزقكم انكم تكذبون﴾ يعني وتجعلون شكر رزقكم انكم تكذبون فتقولون مطرنا بنوء كذا وكذا فوضعوا الكفر والكفران موضع الشكر والإيمان، ومن موجبات كونه تعالى رازقا ومنعما أن يؤمنوا به فَلاَ يُجحد ويشكر فلا يكفر ويطاع فلا يعصى ويذكر فلا ينسى ولكن هكذا طبيعة الكافرين. وقد روى أن الآية نزلت في الذين مطروا فقالوا: مطرنا بنوء كذا وكذا وروى البخاري ومسلم في صحيحهما[1] والإمام احمد الترمذي، وروى البخاري في صحيحه عن ابن عباس في تفسير الآية ﴿وتجعلون رزقكم﴾ شكركم وهو محتمل ان يكون مراد ابن عباس ان الكلام من قبيل المجاز بالحذف اي شكر رزقكم، او يكون الرزق مجاز عن الشكر بذكر الملزوم وإرادة اللازم وهو الشكر، وقيل ان الرزق في بعض لغات العرب يأتي بمعنى الشكر فيكون تفسيرا للكلمة على سبيل الحقيقة لا على سبيل المجاز وهو غير مسلم والأفحل والأجزل في الخطاب الملائم لبلاغة القرآن هو الأول. واما ما روى في كتب التفسير من أن ابن عباس وعليا رضي الله عنهما كانا يقراءان ﴿وتجعلون شكركم﴾ انكم تكذبونها فهذه الروايات وامثالها تحمل على احسن محاملها وهو التفسير والبيان لا على انها قراءة ثانية لأن القرآن لا يثبت الا بالتواتر المفيد للقطع على انها ايضا مخالفة لرسم المصحف

---

(١) انظر صحيح البخاري - كتاب الاستسقاء باب وتجعلون رزقكم انكم تكذبون مسلم كتاب احاديث الاستسقاء.

الذي كتب في عهد عثمان واجمع عليه الصحابة فكل ما يخالفه فهو مردود لأن الأحادي مهما بلغ لا يعارض المتواتر فكن على ذكر من ذلك دائماً في امثال هذه الروايات. وقد تواترت الأخبار الصحاح في الصحيحين وغيرهما على أن هذه الآية نزلت فيمن قال مطرنا بنوء كذا وكذا واما من قال مطرنا بفضل الله ورحمته فذلك مؤمن بالله كافرٌ بالكواكب.

وليس من شك في ان من يعتقد ان نزول الأمطار انما هو بتأثير الكواكب لا انها سبب عادي وامارة فحسب فهو كافر بالله العظيم، واما من يعتقد ان نزول الأمطار انما هو باذن الله وارادته وان ظهور الأنواء ووجود الأسباب العادية من وجود سحب أو تحرك رياح انما هي امارات منذرة بنزول الأمطار. فهذا مؤمن ولا يضر ذلك باعتقاده ولكن الأولى والأليق ان لا ينسب الأحداث الا الى الله تعالى.

قال الإمام الشافعي في كتابه الأم «من قال مطرنا بنوء كذا وكذا على ما كان بعض أهل الشرك يعنون من اضافة المطر الى انه مطر نوء كذا، فذلك كفر كما قال رسول الله ﷺ ولأن النوء والوقت مخلوق لا يملك لنفسه شيئا ومن قال مطرنا بنوء كذا على معنى مطرنا وقت كذا فلا يكون كفراً وغيره من الكلام أحب الي منه» يعني حتى لا يكون ذلك ذريعة الى الكفر فعلى التوجيه الأول المراد بالكفر الكفر الشرعي، واما على الثاني فيكون المراد به كفران النعمة وعدم الشكر كما يدل على ذلك حديث الإمام مسلم الذي سقناه في مقدمة الشرح.

قال تعالى ﴿فلو إذا بلغت الحلقوم(٨٣) وأنتم حينئذ تنظرون(٨٤) ونحن أقرب اليه منكم ولكن لا تبصرون(٨٥) فلولا إن كنتم غير مدينين(٨٦) ترجعونها إن كنتم صادقين(٨٧)﴾.

« التفسير والبيان »

شرع في بيان ان الخالق هو الله وانه هو المتصرف في الكون وانه هو المحيي ينفخ الروح في الأرحام وهو المميت ينزع الروح من البدن ورجوعها اما الى عليين وهي أرواح المؤمنين او الى سجين وهي ارواح الكافرين. وانه هو القادر على كل شيء وانه اذا اراد شيئا فانه يقول له كن فيكون وانه ليس في الكون علوية وسفلية ما يتأبى عن الخضوع لقدرته وارادته حتى في أحب شيء الى الخلق وهي الحياة فقال عز شأنه ﴿فلولا اذا بلغت الروح الحلقوم﴾ والكلام على هذا متصل غاية الاتصال بقوله فيما قبل ونحن خلقناكم فلولا تصدقون وما جاء بعده فهي دلائل على هذه القضية قضية الخلق وانه لا منازع له فيها. وقضية البعث، فإن القادر على بدء الخلق قادر على الإعادة من باب أولى.

ثم استطرد بعد اقامة الأدلة الى القسم على ان القرآن حق لا ريب فيه وانه كريم في نسبته وفي ذاته وفي منافعه وآثاره وانه هو مصدر الدلائل العقلية والنقلية على وجود الله تعالى وعلى تفرده بالوحدانية ثم بعد ذلك خلص الى بيان الحقيقة الأزلية وهي انه المختص بالإماتة كما هو المختص بالإحياء وان كنتم في شك من هذه الحقيقة حقيقة التفرد بالاحياء والاماته فاليكم هذا التحدي الصارخ للبشر كلهم فان قدرتم على رد أرواحكم بعد الاماته فافعلوا ان كنتم صادقين فيما تزعمون من نفي الخالق والقول بالطبيعة وما انتم بمستطيعين ولن تستطيعوا واذا كان الأمر كذلك فآمنوا وصدقوا بالله على حسب ما جاء به القرآن تفلحوا وتكونوا من المقربين أو من أهل اليمين والا فانتم من المكذبين الضالين اهل الشمال واليكم الشرح والبيان:

والفاء للعطف ولولا تخضيضيه يعني يراد بها الحث على الشيء والحض على فعله والمراد بالتحضيض هنا اظهارهم وعجزهم لأن متعلق التحضيض هو قوله سبحانه ﴿ترجعونها﴾ ﴿وما هم بمستطيعين﴾ واذا ظرفية والضمير في ﴿بلغت﴾ يعود على الروح المفهوم من المقام وهي التي بها الحياة وهذا ما لا ينبغي ان يختلف فيه اثنان والحلقوم مجرى الطعام ومثل هذا قول حاتم الطائي:

أَمَا وِيَّ ما يغني الثراء عن الفتى اذا حشرجت يوما وضاق بها الصدر

يعني الروح

﴿وانتم حينئذ تنظرون﴾ يعني حين اذ بلغت الروح الحلقوم وحلت سكرات الموت بالمحتضر تنظرون اليه نظرات حزن وأسى وحسرات على انكم لا تملكون له نفعا ولا تستطيعون لما حل من السكرات والشدائد دفعاً، والخطاب للكافرين الذين لا يؤمنون بالله ولا يؤمنون بالبعث ويقولون «ان هي الا حياتنا الدنيا نموت ونحيا الدهر وما نحن بمبعوثين» ﴿ونحن أقرب اليه منكم﴾ الضمير في اليه يعود على المحتضَر المفهوم من الكلام وقد قال غير واحد من السلف المراد بالقرب بالعلم والقدرة يعني نحن اقرب اليه في كل ذلك منكم حيث لا تعرفون من حاله الا ما تشاهدون من اثار الشدة واما نحن فعالمون بكل ما نزل به وقادرون على دفع ذلك عنه إن أردنا، وقيل المراد به قرب ملائكة الموت اليه وهم الذين ارسلهم الله لقبض روحه. ﴿ولكن لا تبصرون﴾ أي لا تدركون كوننا اقرب اليه منكم لجهلكم بعلمنا وقدرتنا وسائر صفاتنا أولا تُبصروننا لأن الله تبارك وتعالى وصفاته لا يرى بالابصار وانما يرى بالعقول والبصائر، أو ولكن لا تُبْصرون ملائكتنا الموكلين بقبض روحه لأنهم محجوبون على أعينكم وأبصاركم فهو مثل قوله تعالى

﴿حتى اذا جاء احدكم الموت نوقته رسلنا وهم لا يفرطون﴾. ولن تجد اصدق ولا ابلغ في وصف حال المحتضر وما يعانيه من سكرات الموت وحال أهله وولده وأحبابه وهم محيطون له ينظرون اليه نظرات أسى وحسرة. من هذه الآيات الكريمات انها صورت هذا المشهد الرهيب تصويرا دقيقا بليغا حتى كأنه مائل أمام السامع بصوره وظلاله.

﴿فلولا ان كنتم غير مدنيين﴾ لولا هذه توكيد للولا الأولى فهي للتحْضيض ايضا وكان لا بد منها لأن الكلام الأول قد طال ومعنى مدينين اي غير مربوبين ومملوكين لله وأن وجودكم في هذه الحياة بالطبيعة أو الصدفة «ودان» يأتي بمعنى ملك قال الفراء وغيره: دنته ملكته ومنه قول الحطيئة لأمه يهجوها:

لقد دُيِّنت[1] أمر بينك حتى تركتهم أدق من الطحين

وقيل معنى مدينين اي مجزيين ومحاسبين ومن قوله تعالى ﴿مالك يوم الدين﴾ أي يوم الجزاء وقوله تعالى ﴿انا لمدِيْنُون﴾ أي مجزيون محاسبون وقول النبي ﷺ «كما تدين تدان» اي كما تفعل تجازى. والمعنى: فلولا إن كنتم غير مربوبين لله أو غير مجزيين ومحاسبين وانه لا اله ولا خالق للكون علوية وسفلية وان ليست هناك حياة وراء هذه الحياة ترجعونها ان كنتم صادقين. الضمير في ترجعونها يعود على الروح التي بلغت الحلقوم وأشرفت على الخروج ومفارقة البدن. وهذا هو موضع التحْضيض وهو موضع تحدي الله للخلق وسيستمر هذا التحدي ما بقي كافر بالله ومنكر لحياة أخرى دائمة خالدة وراء هذه الحياة. ومعنى﴿ان كنتم صادقين﴾في زعمكم انلا اله ولابعثولا حسابولا مجازاة

(١) ويروى سُوِّست ويروى أيضاً ملكت. وقيل هذا البيت:

أغر بالا اذا استودعت سراً وكانونا لدى المتحدثينا.

وفي الكلام شرطان: الأول قول الله تعالى ان كنتم غير مدينين والثاني: قوله تعالى: ﴿ان كنتم صادقين﴾ اما الأول فجوابه ما دل عليه لولا وما دخل في حيزها، والمعنى ان كنتم غير مدينين فلولا ترجعونها اي الروح الى البدن والشرط الثاني مؤكد للأول مبين له، لأن معناهما واحد أي ان كنتم صادقين في انكم غير مربوبين وغير مجزيين، ولا محاسبين. ويجوز أن يكون الشرط الأول داخل في الشرط الثاني فهو مقدم في الوضع، ولكنه مؤخر في المعنى، والمعنى إن كنتم صادقين في أنكم غير مربوبين فهلا ترجعون الأرواح الى الأبدان. وهذه الآية من أقوى ما يرد به على الكافرين والملحدين ولا سيما اللادينيون القائلون بأن العالم وجد بالطبيعة أو بالصدفة. الا فليتقدم العلم كما شاء الله له أن يتقدم: وليتقدم الطب كما شاء الله له ان يتقدم ولكن الذي نقطع به أن البشرية ستقف عاجزة امام هذا التحدي الصارخ وستبقى هاتان الحقيقتان ﴿هو يحي ويميت﴾ من أقوى الأدلة على وجود الله وعلى وحدانيته وأنه هو المتصرف في الكون كما يشاء، ومن يحلو له الجدال في هاتين الحقيقتين. فلا يزال القرآن العظيم يتحداه هذا التحدي الصارخ فإن أمكنه ان ينقض الحقيقتين أو إحداهما، فليفعل، وما هو بمستطيع إن شاء الله!!!.

ثم شرع الله سبحانه وتعالى في بيان حال المتوفي بعد الممات اثر بيان حاله عند الوفاة فقال: ﴿فأما إن كان من المقربين(٨٨) فروح وريحان وجنة نعيم(٨٩)﴾ هذا عود على بدء وهو ما ذكر في صدر السورة من تقسيم الناس من هذه الأمة الى أصناف ثلاثة هم السابقون الأولون، وأصحاب اليمين، وأصحاب الشمال وبدأ بالصنف الأول، فهم أولى الطوائف الثلاثة وأولاهم بالسبق فقال: ﴿فأما إن كان من المقربين﴾ وقد قدمنا ما فيه الكفاية في بيان المقربين، ﴿وأما﴾ حرف شرط

وتفصيل وهي تفيد توكيدا في الكلام ﴿فروح﴾ بفتح الراء وهي الراحة، وقيل الرحمة، ومنه قوله تعالى: ﴿انه لا ييأس من روح الله الا القوم الكافرون﴾ وقرىء فرُوح بالضم والمراد بها الرحمة لأن بالروح تحيا بها الأجسام كما أن الرحمة تحيا بها القلوب والنفوس. فالكلام اما من قبيل الاستعارة بتشبيه الرحمة بالروح لأن في كل منهما حياة أو من قبيل المجاز المرسل من اطلاق الحال وارادة المحل أو المسبب وارادة السبب وما أحسن أن يجتمع للمقربين الراحة بأوسع معانيها والرحمة في مستقر رحمته وهي الجنة ﴿وريحان﴾ اما بمعنى الرزق أو بمعنى الريحان ذو الرائحة الذكية وكلاهما حاصلان في الجنة ففيه ما لذ وطاب من الطعام والشراب. وأجواؤها شذية ذكية وحصباؤها المسك والكافور ﴿وجنة نعيم﴾ اي جنة نعيم دائم فيها ما تشتهيه الأنفس وتلذ الأعين وهم فيها خالدون. والاضافة بمعنى اللام أي جنة للنعيم ثم بين سبحانه وتعالى أحوال الصنف الثاني وهم اصحاب اليمين فقال عز شأنه وتقدست أسماؤه ﴿وأما ان كان من اصحاب اليمين (٩٠) فسلام لك من أصحاب اليمين(٩١)﴾ مقول لقَوْل محذوف يعني فيقال له: سلام لك يا صاحب اليمين من اخوانك واحبابك وجيرانك أصحاب اليمين فمن على أصل وضعها فهو مثل قوله تعالى: ﴿لا يسمعون فيها لغوا ولا تأثيا، الا قيلا سلاما سلاما﴾ أو ان المراد أن الملائكة تسلم عليه عند نزع الروح وتبشره بمكانه في الجنة فهو مثل قوله تعالى ﴿ان الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا تتنزل عليهم الملائكة أن لا تخافوا ولا تحزنوا وأبشروا بالجنة التي كنتم تدعون﴾. وقيل إن هذا الكلام يراد به تعظيم حالهم وتفخيم شأنهم وذلك كما تقول فلان ناهيك به وبحسبه أنه فلان اشارة الى أن له من الفضائل والخصائص ما لا يحصى ولا يعد. ثم ذكر الله عاقبة أصحاب الشمال فقال سبحانه وتعالى ﴿وأما ان كان من

المكذبين الضالين[٩٢]﴾ ولم يقل سبحانه وتعالى وأما ان كان من أصحاب الشمال ليسجل عليهم انهم مكذبون ضالون أي مكذبون بالله وبما اخبر به من البعث، ضالون عن الصراط المستقيم، والحق الظاهر المبين ولا سيما في العقائد وفي تَسْجيل ذلك عليهم بيان أنهم ما عذبوا هذه العذاب وكانت لهم هذه العاقبة السيئة الا لسبب تكذيبهم وضلالهم، وقد وصفهم الله تبارك وتعالى حينما فصل أحوالهم في صدر السورة بقوله ﴿ثم انكم ايها الضالون المكذبون لآكلون من شجر من زقوم﴾ فقدم ذكر الضلال على التكذيب وهنا قدم ذكر التكذيب على الضلال وقد تكلم العلماء في ذلك وأكثروا ولم يرق في نظري قول قيل.

والذي يظهر لي - والله اعلم - ان المقام هناك مقام الخطاب مع الكفار المشركين بالله والمنكرين للبعث فكان الملائم هناك تقديم ذكر الضلال على التكذيب لأن ضلالهم كان سبب تكذيبهم ولولا الضلال لما كان التكذيب بيوم القيامة وأما هنا فالمقام مقال بيان ما لهم بعد الحياة والمهات وقد عاين كل منهم ما أعد له من عذاب ومن سوء المصير اذ المؤمن عند الوفاة يرى مقعده من الجنة والكافر يرى مقعده من النار فصارت الحياة الآخرة بالنسبة له يقينا فكان المناسب هنا ذكر التكذيب ليكون أدل على التوبيخ والتقريع فكأن الله قال: وأما من كان من المكذبين بالبعث وبالحياة الآخرة وما فيها من جنة ونار وقد عاينوها وعاينوا مقدماتها كسؤال الملكين وعذاب القبر. الضالين بكفرهم فاليكم ما أعد لهم وهو: ﴿فنزل من حميم[٩٣]﴾ والنزل هو ما يعد للضيف. والحميم هو الماء الحار التي يقطع الامعاء وتغلي منه البطون وفي التعبير بنُزُلٍ تهكم بهم ليس بعده تهكم والتقدير فلهم نزل من حميم ﴿وتصلية جحيم[٩٤]﴾ والمراد ادخالهم النار التي يصلون لهبها وحرها وإنما أوجز الله تبارك وتعالى في بيان حال أحوال الطوائف الثلاث بعد المهات اعتمادا على ما سبق من الإطناب وإطالة القول في احوالهم فكان بمثابة الإجمال بعد

التفصيل والا لعد ذلك تكرارا ثم كان بعد ذلك الخاتمة التي لا بد منها ﴿إن هذا لهو حق اليقين(٩٥)﴾المشار اليه هو ما ذكر في السورة من الأصناف الثلاثة وما أعد لهم من نعيم مقيم أو عذاب دائمة واصب ﴿لهو حق اليقين﴾ هو من اضافة الموصوف الى الصفة والمعنى لهو الحق اليقين، وقيل من إضافة الصفة الى الموصوف والمعنى: «لهو اليقين الحق» ودرجات العلم ثلاثة: اليقين: وهو الاعتقاد الجازم المطابق للواقع، الثانية: حق اليقين وهي أعلى من الثانية، الثالثة: عين اليقين واليهما الاشارة في قوله تعالى ﴿كلا لو تعلمون علم اليقين، لترون الجحيم، ثم لترونها عين اليقين﴾ ومثل ذلك أن يخبرك مخبر لا تشك في صدقه أن الورد له ريح طيب، فقد حصل لك اليقين بأن الورد ذو رائحة طيبة ثم اخبرك كثيرون غيره أن الورد ذو رائحة طيبة فقد حصل لك حق اليقين ثم جيء لك بوردة فشممت رائحتها فقد حصل لك عين اليقين ثم بعد هذا كله جاءت النتيجة الحتمية التي لا بد منها بعد الإفاضة في الدلائل العقلية والكونية في الانفس والكون والآفاق والتي لأجلها خلق الأرض والسموات وخلق الملائكة والانس والجن وهو قوله سبحانه ﴿فسبح باسم ربك العظيم(٩٦)﴾ وقد تكررت مرتين في السورة على حسب ما ساق الله قبلها من دلائل بينات وحجج واضحات على انه سبحانه في ذاته، وصفاته، وأسمائه الحقيق بكل كمال المنزه عن كل نقص، وفي صحيح البخاري عن النبي ﷺ انه قال «كلمتان خفيفتان على اللسان، ثقيلتان في الميزان، حبيبتان الى الرحمن، سبحان الله وبحمده سبحان الله العظيم» ومن لطائف الإمام البخاري، وبراعته في الختام، ان هذا آخر حديث في كتابه «الجامع الصحيح».

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه وأتباعه الى يَوْمِ الدِّين وإخوانه المرسلين. وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين

المراجع الأصلية

(١) تفسير ابن جرير الطبري
(٢) تفسير الكشاف لجار الله الزمخشري
(٣) تفسير القرطبي
(٤) تفسير ابن كثير
(٥) تفسير الآلوسي
(٦) صحيح الإمام أبي عبد الله البخاري
(٧) صحيح الإمام مسلم بن الحجاج القشيري
(٨) سنن أبي داود ، وجامع الترمذي ، وسنن النسائي ، وابن ماجه
(٩) موطأ الإمام مالك بن أنس
(١٠) مسند الإمام أحمد بن حنبل
(١١) مستدرك الحاكم أبي عبد الله النيسابوري
(١٢) السنن الكبرى للبيهقي ، و « شعب الايمان » له
(١٣) تفسير سورة الفاتحة للشيخ محمد عبده
(١٤) التفسير القيم لابن القيم
(١٥) المدخل لدراسة القرآن الكريم ، للمؤلف
(١٦) الدين والعلم للمشير عزت باشا التركي
(١٧) الله والعلم الحديث للدكتور عبد الرزاق نوفل
(١٨) محاسن التأويل في التفسير للشيخ محمد جمال الدين القاسمي

(١٩) المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر لضياء الدين أبي الفتح نصر الله ابن الأثير الجزري
(٢٠) مفردات القرآن الكريم للراغب الأصفهاني
(٢١) اسباب النزول للسيوطي على هامش كتاب «تفسير الجلالين»
(٢٢) القاموس المحيط للفيروزابادي
(٢٣) الصباح المنير للفيومي
(٢٤) مختار الصحاح للرازي

هذا إلى ما مَنَّ الله به عليَّ من مصاحبة القرآن الكريم وعلومه من نحو نصف قرن فللّه الحمد والمنة، سبحانك ربنا لا علم لنا إلا ما علمتنا، انك أنت العليم الحكيم.

فهرس المحتويات

٣١ معنى الثلة، والمراد بها هنا.

٣٢ المراد بـ «الأولين» وبـ «الآخرين»، والدليل على ذلك، وبيان اهما في الأمة المحمدية فحسب، أم هما فيها وفي غيرها؟.

٣٣ ترجيح المؤلف أن «الأولين» و «الآخرين» من الأمة الإسلامية مع التدليل.

٣٤ مقارنة بين موقف بني اسرائيل من موسى عليه الصلاة والسلام، وموقف الصحابة الكرام من رسول الله ﷺ في بدر، وبيان قلة من آمن من الأقوام بالأنبياء السابقين، وكثرة من آمن بنبينا من الأمة الاسلامية.

٣٥ تفسير قوله تعالى: ﴿على سُرُرٍ موْضُونَةٍ، مُتَّكِئِينَ عَلَيْهَا مُتَقَابِلِينَ﴾ وهو بعض نعيم الجنة.

٣٦ بيان بعض أنواع النعيم المعنوي في الجنة في قوله تعالى: ﴿متقابلين﴾، وبيان الفرق بين الأحوال المترادفة، والأحوال المتداخلة، وهي مسألة دقيقة لا يستغنى عن معرفتها أهل العلم وطلابه ولا سيا طلاب الدراسات العليا في «الكتاب والسنة».

٣٧ تفسير قوله تعالى: ﴿ويطوف عليهم ولدان مخلَّدُون﴾ شروع في بيان ما أعده الله سبحانه للسابقين، السِّر في وصف الولدان بالتخليد، بيان من هم الولدان المخلدون؟. أهم اولاد الكفار الصغار، أم هم أولاد المسلمين الذين ماتوا قبل البلوغ؟ وبيان الراجح.

٣٨ التوفيق بين الأحاديث الواردة في أولاد الكفار الذين لم يبلغوا، وبيان أن الصحيح أنهم خدم أهل الجنة، وذكر الأدلة على ذلك.

٥٥ اعراب قوله: ﴿أوَآباؤنا الأولون﴾ للمفسرين في هذا وأمثاله وجهان في الإعراب، توجيه القراءتين في قوله: ﴿أوَآباؤنا﴾ وهما فتح الواو وإسكانها.

٥٦ القرآن الكريم هو أوثق المصادر لمعرفة اللغة، والقواعد النحوية والصرفية واذا ثبت فيه استعمال فلا تلتفت إلى قول فلان وعلان - تفسير قوله: ﴿قل إن الأولين والآخرين....﴾ الآية، لم قدم الأولين على الآخرين، الميقات إما مكاني، وإما زماني، والمراد هنا الزمان - يوم القيامة معلوم عند الله وقته لا عند الناس.

٥٧ ساق الله البعث في الآية مساق المسلمات لأنه سبحانه قد أقام على ذلك الأدلة العقلية في مواضع أخرى من الكتاب المبين.

٥٨ تفسير قوله تعالى: ﴿ثم إنكم أيها الضالون المكذبون...﴾ الآيات ما هو شجر الزقوم، ما ورد في القرآن بشأنها صراحة، أو بالوصف، وما هيَ «الشجرة الملعونة»؟ ومن الملعون؟.

٥٩ لا يجوز قياس الغائب على الحاضر والشاهد - العقل البشري توصل الى ثياب تقي من النار، فكيف نستبعد على قدرة الله - جل وعز - أن ينبت شجرة في النار؟!
لم أنث الضمير في «منها»؟. ولم ذكره في «عليه»؟.

٦٠ تفسير قوله تعالى: ﴿فشاربون شرب الهيم﴾ قريء في السبع «شُرب» و«شَرْب» معنى «الهيم» المراد بالنزل في قوله تعالى: ﴿هذا نزلهم يوم الدين﴾ في هذا التعبير تهكم بهم غاية التهكم.

٦١ قوله تعالى: ﴿نحن خلقناكم فلولا تصدقون﴾ الى قوله: ﴿فلولا تذكرون﴾.

٦٢ ما هو متعلق قوله: ﴿فلولا تصدقون﴾ وما معنى «الفاء» وما

معنى «لولا» المشركون وان أقروا بأن الله خالقهم، لكن أعمالهم تشهد عليهم بغير ذلك. قوله تعالى: ﴿أفرأيتم ما تمنون﴾ شروع في إقامة الأدلة على أن الله هو المتفرد بالخلق.

٦٣ قوله: ﴿أفرأيتم ما تمنون﴾ من أظهر الأدلة على أن الله هو الخالق الموجد - ما ذكره القرآن عن أطوار خلق الإنسان من منذ أربعة عشر قرنا هو آخر ما انتهى اليه علم الأجنة اليوم، قوله: ﴿نحن قدرنا بينكم الموت، وما نحن بمسبوقين﴾ من أقوى الأدلة على أن الله هو المتفردُ بالإماتة وَإلاَّ فليدفعوا عن أنفسهم الموت إن استطاعوا، وما هم بمستطيعين!!.

٦٤ تفسير قوله تعالى: ﴿وما نحنُ بمسْبُوقينَ على أنْ نبدل أمثالكم وننشئكم فيما لا تعلمون﴾ الأمثال جمع مثل - بكسر الميم وسكون الثاء المثلثة - أو جمع «مثل» بفتح الميم والثاء.

٦٤ تفسير قوله تعالى: ﴿ولقد علمتم النشأة الاولى فلولا تذكرون﴾ المراد بالنشأة الأولى، الآية دليل قاطع على إمكان البعث ولذا ختمها بقوله سبحانه: ﴿فلولا تذكرون﴾.

٦٥ تفسير قوله تعالى: ﴿أفرأيْتُم ما تَحْرُثُون أأنتم تَزْرَعُونه، أم نحن الزَّارِعُون﴾ الآيات شروع في دليل آخر على أنه سبحانه هو الخالق، وهو القادر على إحياء الموتى، معنى الحرث، ومعنى الزرع - من أسرار الإعجاز القرآني في الآية - حديث من أدب النبي ﷺ في التعبير.

٦٦ كلام جيد للإمام القرطبي المفسر، ذكر آيات أخرى في هذا المعنى.

٦٧ تفسير قوله تعالى: ﴿لو نشاء لجعلناه حطاما...﴾ الآيات معنى «لو» معنى «الحطام» معنى «فظلتم تفكهون».

ما تَحْرثُون....﴾ وقوله: ﴿أفرأيتم الماء الذي تَشْربون....﴾.
وقوله: ﴿أفرأيتم النار التي تُورون....﴾.

٧٤ تفسير قوله تعالى: ﴿فلا أقسم بمواقع النجوم﴾، بيان آراء المفسرين في قوله تعالى: ﴿فلا أقسم﴾ ومناقشتها، وبيان الراجح منها.

٧٥ ما هي «مواقع النجوم» ذكر رأيين للمفسرين في هذا، السر في القسم بمواقع النجوم.

٧٦ سير ألوف ألوف الكواكب والنجوم في مساراتها من غير اصطدام من أظهر الأدلة على وجود الله القادر العالم الخبير الذي لا تخفى عليه خافية في الأرض ولا في السماء، كلام لبعض العلماء المعاصرين. قول آخر لبعض السلف في تفسير «مواقع النجوم» وأن المراد نزول القرآن منجما مفرقا.

٧٧ المناسبة بين القسم والمقسم عليه. على هذا الوجه ظاهره، بيان المناسبة على الرأيين الأولين وقد ابدع المؤلف في بيان المناسبة، وأجاد، بيان معنى قوله: ﴿وإنه لقسَم - لو تعلمون - عظيم﴾ الجملة إعتراضية بين المقسم والمقسم عليه، وفيها أيضا اعتراض داخل اعتراض.

٧٨ تعريف القرآن لغة، وشرعا، القرآن وصف بأوصاف ثلاثة: الأول «كريم» وبيان معناه وأنه كريم في نسبته، كريم في ذاته، كريم في منافعه للخلق جميعا.

٧٩ الوصف الثاني: «في كتاب مكنون»، وبيان معناه، الوصف الثالث: ﴿لا يمسه الا المطَّهَرُون﴾ ومن المراد بالمُطهرين؟ قيل: هم الملائكة الكرام.

٨٠ وقيل: المطهرون من الحدث الأكبر والأصغر وعلى هذا تكون

الآية دالة على حرمة مس الجنب والمحدث المصحف وعلى حرمة قراءته للجنب والحائض والنفسا، والنفي في هذا أبلغ من النهي.

٨١ ذكر السيوطي عن الإمام الشافعي: أنه استدل بالآية على منع المحدث مطلقا من مس المصحف.

ذكر آثار تدل على أن القرآن لا يمسه الا طاهر يعني من الحدث الاكبر والأصغر. القرآن كان كله مكتوبا في عهد النبي ﷺ وإن كان مفرقا في العسب، والأكتاف والرقاع ونحوها.

٨٢ قصة السيدة فاطمة بنت الخطاب مع أخيها عمر قبل اسلامه، استدل من جوز مس المصحف للمُحدِث حدثاً أصغر بكتاب رسول الله ﷺ إلى قيصر وكانت فيه آية قرآنية.

٨٣ مذاهب السلف والأئمة في حكم مس المصحف على غير وضوء - نقل كلام للامام القرطبي في تفسيره - وتعقيب المؤلف عليه.

٨٤ القراءات في قوله تعالى: ﴿إلا المطهرون﴾ قوله تعالى: ﴿تنزيل من رب العالمين﴾ الآية وصف رابع للقرآن العظيم. تنزيل مصدر أريد به المنزل، وقد غلب هذا على القرآن حتى أصبح من أسمائه.

٨٥ تفسير قوله تعالى: ﴿أفبهذا الحديث أنتم مُدْهِنون﴾ المراد بالحديث، معنى مُدْهنون - الاطوار اللغوية التي مرت بها الكلمة حتى أصبح معناها التهاون وعدم التصلب في الحق - أقوال لبعض السلف في تفسير «مدهنون».

٨٦ تفسير قوله تعالى: ﴿وتَجْعلونَ رِزْقَكم أنكم تكذبون﴾ ما المراد

بقوله: «رزقكم» أهو من قبيل المجاز بالحذف، أومن قبيل المجاز المرسل؟.
ما روي عن علي، وابن عباس، رضي الله عنهما انهما كانا يقرءان «وتجعلون شكركم» فليس بقرآن قطعا وإنما هو تفسير وبيان للمعنى المراد، وكل رواية غير متواترة، فلا تقبل في اثبات قرآن قط.

٨٧ سبب نزول هذه الآية، الفرق بين من يقول مطرنا بنوء كذا على أن النوء هو الموجد للمطر، وبين من يقول على أنه سبب عادي يصحبه نزول المطر فالأول كافر، والثاني مؤمن. كلام حسن للإمام الشافعي في هذا التفصيل.

٨٨ تفسير قوله: ﴿فلولا إذا بلغت الحلقوم....﴾ الآيات، شروع في بيان أنه سبحانه المتصرف في الكون، وأنه المحيي، وأنه المميت وأن هاتين الحقيقتين: الإحياء، والإماتة لا يقدر عليهما الا الله تعالى - ثم تحدى الله البشر كلهم هذا التحدي الصارخ بقوله: ﴿فلولا إن كنتم غير مدينين، ترجعونها ان كنتم صادقين﴾ وما هم بمستطيعين.

٨٩ والفاء في «فلولا» للعطف و «لولا» تحضيضية في الموضعين، والضمير في بلغت يَعودُ على الروح - معنى الحلقوم، الضمير في «إليه» يعود على المحتضر - معنى «أقرب» متعلق قوله «لا تبصرون».

٩٠ الإعجاز البياني في هذه الآيات والدقة الفائقة في تصوير حال «المحتضر» وحال أهله حوله، ينظرون ولا يقدرون على شيء، تفسير قوله: ﴿فَلَوْلا إنْ كنتم غير مدينين﴾.

٩١ بيان معنى الشرطين في قوله: ﴿إن كنتم غير مدينين﴾ وقوله: